الهزيمة اسمها سارة

تأليف

محمد عثمان

طباعة وتوزيع دار المعارف

الآراء الواردة فى هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر
المؤلف ولا تعبر عن وجهة نظر الناشر

تصميم الغلاف: أيمن القاضى

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع النظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg
http://gate.dar-elmarf.com

إهـداء قصة الهزيمة اسمها سارة

أقدم هذه القصة البسيطة الصغيرة متلاحقة الأحداث للحى الذى أعرفه وأحبه: حى الظاهر.. الحى الذى كان فيه كرنفال الألوان والجنسيات والملل والشخصيات.. حى فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى يصعب وصفه أو عرضه، المنازل ذات الطراز الرائع القديم.. والشوارع الفسيحة.. فخر أبناء الحى بما يملكون من تزاوج الثقافات.

الخواجة، اليهودى، المسيحى، المسلم، لا أنكر أنه كانت هناك تفرقة أو أنانية أو تعالى طبقة على طبقة، ولكن فى آخر المطاف كان هناك تعايش بين الثقافات..

كالطفل لعبت مع اليهودى والمسيحى والمسلم.. وحى باب الشعرية والحسينية خلفى يؤكدان لى أننى فى عصر ابن البلد والعالم والإنسانية.. أقسم أننى كنت كل ليلة أستمع لأجراس الكنائس.. وآذان المساجد.. مصر التى يذوب فيها الجميع فى احترام تام لكل العقائد.. والصداقة التى تذيب الخلاف وإيمان الإنسان بالآخر بحثا عن ميزة و صفة طيبة لا بحثا عن نقد أو عيب وسب وتفاهة.

كنت أحترم رجل الدين المسيحى وأحبه وأناديه بـ «أبونا» حتى يومنا هذا.. وللحق فهم دائما يحترمون عقيدة المسلم.. ولم أستمع يوما منهم تحقيرا أو مقارنة أو إسفافا.

يالجمال العصر القديم.. يالجمال الحب والعطاء والتسامح والمحبة..
هل ممكن أن نعيش هذا العالم مرة أخرى..

أُضيف أمرًا مهمًا..

الأستاذ «محمد أبو الغار» الطبيب القدير المهذب الشجاع. وفى رحلة من رحلاته للخارج تعرفت عليه واستمع لى جيدًا، قرأ لى وأعجب بكتاباتى وشجعنى.. وصدر له كتاب (يهود الشتات)، قرأته وأعجبت به.. وكأنه موسوعة توضح لنا حياة كنا نعرفها بحى الظاهر.. الذى جمع كل الشخصيات والملل والأفكار.

إن اختلاف البشر يدعو دائمًا للتأمل والرغبة فى المعرفة ومحاولة التقارب للتقدم ومن المؤكد أن معرفة الآخر والتفاهم معه تؤدى لنشر روح المودة والتسامح ليعيش العالم فى سلام وأمان.

المؤلف

محمد عثمان

مقدمة (٢٠١٠)

نهضة مصر الحديثة.. مرتبطة بقهرها وإذلالها..

الحملة الفرنسية.. غرباء يقتحمون أرض مصر.. يملكون القوة العسكرية والعلمية والمدنية.

لم يكن أمام المصرى سوى اللجوء لقوة العقيدة والأزهر، لدفع الاعتداء، رغم اقتناعه التام بقوة العلم ورغبة التغيير.. فكان إذلال الحملة له الباعث لنور النهضة، لم يجد رجال الدين سوى «محمد على» ليسلموه أمر البلاد.

قتل «محمد على» حكام مصر من المماليك واستولى على الحكم بقوة السلاح مع استسلام تام من المصريين لأوامره.. فأصبح الحكم له منفردًا.. والطاعة تامة من الشعب حتى إنه قرر أن أرض مصر كلها ملكه..

ما دام يدفع للباب العالى الثمن.. فيحق له حكم مصر.. وتحصيل الضرائب وامتلاك أراضيها.. حتى لو كان الأمر زراعة القطن أو بناء القناطر والترع والسدود.. أين دور شعب مصر؟!

لم يكن أمامه سوى إرسال البعثات للخارج.. واستقدم الأجانب للإقامة لعمل المشاريع وقيادة الجيش والسيطرة الاقتصادية التامة.

حتى إن رؤساء وزراء مصر فيما بعد فى القرن التاسع عشر لم يكونوا يتحدثون اللغة العربية.. وطبعًا لغة السلاطين والباشوات والجراكسة والحكام هى اللغة التركية والعادية.

حدود مصر حتى عكا.. هكذا كانت أيام الفراعنة.. بل إن سكان جنوب فلسطين أغلبهم من المصريين سواء أكانوا الخارجين فى حملات عسكرية وبقائهم هناك مع أسرهم الجديدة أم الحاميات المصرية..

الشرق الأوسط مقسم إلى الفرس والحجاز والعراق والشام ومصر..

تم عمل مشاريع فى مصر سواء حفر القناة أم السكة الحديد أم القناطر بالسخرة والقهر.. وموت الفلاح الضعيف والمريض بأمراض كالبلهارسيا والكوليرا.. إلخ.

حينما حاول أن يتحرك أحد العسكريين الفلاحين مطالبا ببعض الحقوق.. كانت هناك القوة التى عمدت لتطويق الحركة العرابية حتى يصل الأمر بدعوة الخديو توفيق.. القوات الإنجليزية لتحتل مصر بمباركة القوة العسكرية التى تخدمه من الشركس والترك ليتم احتلال مصر بأمر حاكم مصر.. ليضغط على أى صوت من الممكن أن يكون لمصرى للمشاركة فى حكم مصر.

بعد الحرب العالمية الأولى واتفاقية سايكس بيكو، لم يعد العالم الخارجى يحتاج لقوة عسكرية تحتل البلاد.. يحتاج قناة السويس.. الموقع الاستراتيجى، وليس عليه الإنفاق على معسكرات بطول وعرض البلاد.

كانت هناك اتفاقية سايكس بيكو بتقسيم المنطقة.. بين فرنسا وإنجلترا.

ماذا فعل المصريون إزاء ذلك؟

كان هناك وعد بلفور.. وطن قومى لليهود؟!

ماذا فعل العرب إزاء ذلك؟

انهزمت تركيا فى الحرب العالمية الأولى واختارت العلمانية والديمقراطية الغربية؟!

ماذا كان رد فعلنا؟!

هل انتصرنا لرأيها.. أم نسيها الجميع؟!

تفرق زعماء القبائل ليحتلوا المواقع من العراق للأردن لشبه الجزيرة العربية فى اتفاق تام بين العملاء والحكام الأجانب؟!

كانت هزيمة العرب بعد الحرب العالمية الأولى.. وتكريس الحكم الأجنبى أكثر مما يتوقع الكثير..

تقوم ثورة ١٩١٩ وهى حركة تغيير لتسليم مقادير البلد لحكم ديمقراطى مضغوط عليه من الملك والقاعدة الإنجليزية (من معسكرات الإنجليز سواء فى قناة السويس أم غيرها).

تنتهى خلال سنوات التجربة المغلوطة بفصل السودان بعد حادث السلحدار وعزل سلطان مصر.. وخضوع الملك فؤاد وبعده الملك فاروق للإنجليز..

نتوقف فى بداية القرن العشرين عن المؤامرة وتصديق انتصارات زائفة، لم تنتصر ثورة ١٩١٩ بالقدر الكافى.. سعد زغلول متعاون مع الأسرة المالكة لتحقيق ديمقراطية بين شعب الأمية والجهل هما المسيطران عليه، بينما أبسط قواعد الديمقراطية.. سيادة القانون على الجميع.. وحقوق المواطن فوق حقوق الملاك.. ولم تحدث أى من هذه الأمور..

حيث زاد الفقر والمرض والفوارق الطبقية.. والتلاعب بالديمقراطية.. والهزل البرلمانى.. تنتهى الأمور بالرشوة والفساد والمحسوبية بظلام لا ينكره أحد كان.

١٩٢٨.. الإخـوان المسـلمون.. حركة ظاهرها أخلاقـى.. ربط بين الأخـلاق والدين.. فى اندفاع الدولة المصريـة إلى تقليد الحكم العلمانى التركـى فـى علمانيتـه.. وذلك بالرجـوع لأخلاق الخلافة الإسـلامية المنتهية.. فى خوف من الجديد.. والعودة للخلافة العثمانية أو العباسية أو الأموية.. المهم إحياء القرارات الدينية البسيطة فى السياسة والاقتصاد والاجتمـاع لتجد تشـجيع التآمر من الإنجليز بتبرعهـم بـ ٥٠٠ جنيه فى تلك الحركة.. لتتحول من دعوة أخلاقية دينية إلى حركة سياسـية تستخدم لتشتيت القوة الديمقراطية الوليدة.. لقتل الفكر العلمانى وتقسيم الأمة دون أن تدرى حجم المؤامرة.. لتتحول البلاد فيما بعد هذا التطاحن إلى انقسام واضح حتى هذا الزمان.

تطورت الأمور فى أوربا بالحرب العالمية الثانية.. جعل التآمر يصل إلى مداه الواضح.. لم تعد إنجلترا بعد الحرب والقنابل الذرية وحاملات الطائرات والقاذفات العملاقة محتاجة لقاعدة بها ١٠٠,٠٠٠ جندى، عليها أن تترك هذا المكان سواء أكان لحليفتها أمريكا كثمن لمساعدتها فى الحرب العالمية.. أم للانكماش الاقتصادى، وبالتالى العسكرى المفروض.

لهذا لم تقاوم حركة الضباط الأحرار.. بل شجعتها.. ونفى الملك فاروق وكان فى تأمينه ووداعه السفير الأمريكى.. لأبلغ تأكيد أن مصر مستهدفة وخطة مدروسة منظمة، على ذلك نعود لحرب فلسطين..

كان قرار التقسيم عام ١٩٤٧ هو أفضل قرار للعرب حيث إن الدولة اليهودية هى بقع داخل الثوب الفلسطينى بمرور الزمان ستذوب فيه وستتكون دولة علمانية من الأديان الثلاثة.. وستسود بينهم روح العقل كما فى سويسرا وبلجيكا والهند وإندونيسيا وسنغافورة وجنوب إفريقيا فيما بعد..

المؤامرة المؤكدة.. هى رفض العرب القرار.. وقيام الحرب.. ونزوح الفلسطينيين.

كانت قوات الهجاناة وهى قوات أوروبية.. تقتل العرب بعمد وكراهية ودم بارد.. وانفعلنا بعاطفية وعشوائية ليقتل كل يوم من العرب أكثر وأكثر، ولا نملك سوى الصراخ والدموع.. كأى ضعيف فى العالم لا صوت له أوقدرة أو قوة.

الهجاناة.. يهود أوروبيون تدربوا على يد أفكار النازية العنصرية لتتحول فلسطين إلى مجازر ودماء.. وتتحول مشاعر العرب والمصريين للإحساس بالظلم القاتم، فلم تجد سوى فى أفكار دينية جهادية بسيطة إلى درجة السذاجة بتهجم فى زخم وزحام بدون تدريب أوترتيب لحرب ٤٨ التى لم تستعد لها أو تقررها أو تفكر فيها سوى بالعاطفة لتتحول المنطقة إلى انتصار إسرائيلى كامل يعلن قيام دولة فلسطين مأساتها..

- **تقسيم العالم العربى إلى قسمين.**
- **زرع عدو متربص يتدخل فى مقررات ومقدرات المنطقة ومستقبلها.**

كانت هناك عقول مدركة وشخصيات مصرية هائلة حاولت بقدر الإمكان منع هذا المخطط وهذا الانزلاق.

أنا شبه متأكد أن قادة حركة الضباط الأحرار فى عام ١٩٥٢ كان همهم الأول.. هو تطوير البلاد إلى الأفضل.

ولا ننكر أن أغلبهم كان فى تنظيمات الإخوان المسلمين.. ولكن رؤيتهم الحقيقية وصدق نواياهم.. لا ينكره أحد رغم أعمارهم وقلة خبراتهم العسكرية والسياسية.. ولكن عوضوا كل شىء بصدق نواياهم ورغبتهم العميقة فى تنمية المجتمع وتحقيق العدالة الاجتماعية لأفراد الشعب.

كان أفضل شىء هو تأكيد قومية مصر العربية، وكان لابد أن نؤكد أن مصر دولة متعددة الثقافات كان بها ٢٥٠،٠٠٠ أجنبى يساهمون فى تطوير البلاد برغم ملاحظات التعالى والمصالح الشخصية والفساد، ولا ننكر ولا ينكر التاريخ فضل هؤلاء فى نشر سبل الثقافة والفكر والتطور فى جنبات المجتمع المصرى.

فرض على مصر. والعراق مثلها واليمن ومعظم الدول العربية تحت الضغط التآمرى.. واستعمال سلاح التعصب العنصرى الأعمى بفصل أبناء الأمم العربية بعضهم عن بعض. فأصبح المسلم عربيا والقبطى مسيحيا واليهودى غريبا.

إننى أؤمن إيمانًا مطلقًا أن تعدد الثقافات يؤدى إلى تقدم الأمة.. واحترام عقائد الآخرين له الفضل الهائل لسعادة البشرية.

إن الإنسان أوله وآخره إنسان..

والإنسانية فرض على كل من يتنفس ويقرأ ويتعلم ويدرك على هذه الأرض. إن الحياة الرائعة الجميلة هى تقبل الآخر بالحب والإقناع والعطاء والتسامح.

لن تتقدم هذه الأمة ما دمنا نعيش نولول فىحزن ونشكو الظلم ونبكى على الذى ضاع.

ليس من وظيفة الكاتب وضع الحل ولكن إنارة الطريق.. وأنا أدرك أن إنارة الطريق أمامنا ليست إلا بفكر واع وعمل متصل فى بناء صروح العلم والمعرفة والثقافة والتقدم لوطننا مصر والمنطقة من حولنا، إن العامل المصرى يعمل بكفاءة ١٠٪ من الآخر فى الدول المتقدمة ولا يقرأ أو يبدع وينكر رأى الآخر إن كان مخالفًا وتنقسم الأمة إلى أفراد وجماعات، وإن أردنا الانتصار علينا الانتصار أولاً على روح الانهزامية التى اعتقدت أنها ببعض المظاهر الدينية تستطيع أن تحقق المكاسب الدينية والشخصية والنفسية.. دون البحث عن عمق التقدم العلمى فيما حولنا من العالم الكبير.

عرف العالم النهضة والتنوير فنحى الكنيسة فى أوروبا وصارت العلمانية فى تركيا ومازلنا نعيش فى دائرة لا نخرج منها بكلام بعض المسطحين فى الثقافة والفكر ليقودوا الأمة للخلف منذ بداية الستينيات.

وضع العرب مصر فى المقدمة فقادت الأمة للأمام وكره الملوك فقدان مواقعهم.. فكان التآمر الغريب الواضح.. حتى هزيمة ١٩٦٧م وصدى السعادة داخل صفوف الحكام العرب أكثر مما يظن البعض.. وسوف يذكر التاريخ ذلك، بل إن هناك من يؤكد أن هناك من ساهم فى هزيمة

مصر.. بدءًا بحرب اليمن وانتهاء بتجنيد عملاء لأمريكا بين أفراد الحكم فى مصر.

بل يصل الأمر ببساطة.. أن التآمر قد بلغ المدى الذى يغتال ويقتل الزعيم «جمال عبد الناصر».

إن اتفاقية كامب ديفيد لم تحل مشكلة السلام.. لأنها تركت دولة واحدة قوية تضرب شعبًا ضعيفًا أعزل مسلحًا بالحجارة؛ لتقتل قادته وتذل شعبه يوميًا لتؤكد فى النهاية يدها الطولى.. وأن الباقى عبيد تذلهم كيفما تشاء وتفرض عليهم سياستها وشخصيتها فى انهزامية مؤكدة.

اتفاقية السلام مهزلة ففيها إذلال العرب واقع انتمائها العربى نكتة. حتى انتمائهم الإنسانى انهار.

وأصبح الطريق للجهاد هو تدمير الذات.. تفجير قنبلة فى النفس تقتل الأبرياء أو ركاب طائرة.. أو مساكين عزل.

المؤامرة المحاكة الآن ١١ سبتمبر واحتلال العراق.. وسيطرة الغباء فى السياسة العربية حيث إن الخليج الذى يملك الثروات ينفقها فى سلاح يصبح خردة الأمريكية.

لقد بهر جيران العراق أمريكا بالأرض والمال والقوة لقهر صدام حسين وذبحه فى عيد الأضحى.. يا لها من مهزلة.. نفرح فى ذبح بعضنا بمنتهى العنف والقسوة ونطلب فى إذلال مساعدة الأجنبى ليذبح أخانا العربى.. نتذكر كيف طلب توفيق من الإنجليز حماية عرشه.

سيكون مكانهم مثله فى قمامة التاريخ.. حتى لو كان صدام عميلا أو قاتلا.. فما ذنب شعب العراق الأعزل المسكين الضعيف أمام قوة أمريكا.

سيذكر التاريخ أن رجال العراق كانوا أبطالا فى تحدى قوى الظلم وحرروا بلادهم بفخر لن ينكره أحد.

وهناك من العرب فى إفريقيا أو العالم من يحتاج لسبل الحياة الكريمة بينما نجد من ينفق بلا وعى فى استهلاك مدخراته فى التفاهة والسفاهة.

كيف قول البعض عن نفسه أنه خادم للإسلام... وسبل الإسلام فى التكافل تفرض عليهم مراعاة السودان والصومال.. والفقراء فى العالم؟. إذ بهم يتنكرون لفكرة القومية أو لفكرة الإنسانية ويؤكدون أنهم بالدين يحكمون وقواعد الدين هم بعيدون عنها وقواعد الإنسانية لا يعترفون بها.

إننا نفكر فى حركة سلام إسرائيلية اسمها السلام الآن، يريدون أن يعيشوا فى أمان من جيرانهم لأنها مطالب الحياة.

ولكن لا أحد فى العالم يريد للشرق الأوسط السلام، حتى حكام العالم يهمهم ضمان وتأمين أنبوب النفط والمال من الشرق الأوسط.. ولقد أنفقنا على حبر الطباعة فى مشكلة الشرق الأوسط على مدار عشرات السنين ما يكفى لإسعاد شعب فلسطين.. حتى إن شعب فلسطين أصبح همه الأول الولولة والبكاء، وكأنه يقول فى مشهد كوميدى (كلكم عليا)، مع أن الموقف العاقل يؤكد له أن الحل ليس فى الحلول التى يختارها، وكأن عرقلة الحلول مؤامرة يغذيها قادة المنطقة فى تآمر وأوامر من قادة العالم الرأسمالى لتكون المنطقة الوقود والفرن الذى يحترق فيه الأموال والآمال وشعوب المنطقة.

لقد أطلت عليكم.. ولكننى لست بكاتب روائى أو قصة محترف.. أنا إنسان يندفع بالقلم ليعرض الفكر والرأى بشخصية ووعى وإبداع، أتمنى أن أكون قد حققت وصدقت ووصلت إلى نفسك القريبة منى لأننى يهمنى أن أكون قريبًا منك.

المؤلف

محمد عثمان

* * *

الهزيمة اسمها سارة

أنا يهودية – مصرية، أو مصرية – يهودية وهذه الأوراق تركتها خلفي ليقرأها غيرى، سواء أكانوا مصريين أم غيرهم.

قد يعتقد البعض أن المصريين اليهود لا يتحدثون اللغة العربية الفصحى أو الدارجة بالطريقة السليمة أو الصحيحة.

والحقيقة لقد أحببت اللغة العربية جدًا، فهناك من لا يعرف أن اليهود فى العالم ينقسمون لطوائف كثيرة.. بل اليهود القراءيين المصريين لا تعترف بدينهم دولة إسرائيل.

نعود لأصل الحكاية والدى الرجل الطيب يملك محلا للعطارة، والغريب أن يختار عملا فى محل للعطارة، وليس كباقى اليهود المصريين الذين يختارون دائمًا العمل فى محلات صناعة المجوهرات والذهب أو ما خف وزنه وغلا ثمنه فى التجارة أو غيرها.

أقول لكم فى بداية كلامى أو قصتى، إن لليهود الكثير من الشخصيات واللغات والأوطان.

ولكن من أنا، ابنة من بين أربعة أبناء لمسعود العطار الذى أحبه الناس وأحبهم وأسكن فى الظاهر، حيث يسكن العديد من الأجانب مختلطين بأبناء البلد.

حى الظاهر متصل بالحسينية أولاد البلد (الجدعان) ومتصل أيضًا بباب الشعرية الذى يمتد إلى حى الحسين والدرب الأحمر وباقى الأحياء الشعبية.

أنا وعائلتى تملك منا حب بلادنا.. مصر التى فى خاطرى وفى دمى أحبها.. ولهذا فلقد انشغلت بها حتى آخر أيامى.

شعرى أسود، عيناى واسعتان، أنفى بارزة بطريقة رائعة، وأذناى كبيرتان نوعًا ما، أنشغل دائمًا بلم شعرى خلفهما فتزداد عيون الرجال إعجابا بى حينما أقوم بهذه الحركة.

نحيفة ولكن قوية نشيطة، درست فى المدارس الخاصة، وكنت سعيدة أننى متفوقة وعنيدة، حيث كنت الأولى فى اللغة العربية.

كنت أحضر الأفراح فى قاعة اسمها فرح ما زالت أثارها موجودة بالحى بالسكاكينى، وأزور النادى بها مع أبى وإخوتى.. وهكذا كانت طفولتى.

كنت أحب المصريين أولاد البلد، وأحب الموسيقى، والمزمار البلدى والقانون وكل الجمال فى البيئة المصرية، والسينما وجمالها من كوميدى، للحركة، لحب، رغم صغر عمرى. وأتذكر أن أول من علمنى الموسيقى، أجنبى أرمنى، يقرأ دائمًا جريدة الأرمن كل صباح.. ثم يبدأ فى تعليمى العزف أنا وبعض أبناء الحى.

رغم صغر سنى فإننى بدأت أشعر بدبيب الحب لزميلى مجدى.. والده صاحب صيدلية قريبة.. وكنا نشكل معًا ثنائى عزف رائع.

حدثت أمور فى غاية الصعوبة لم يكترث لها والدى كثيرًا ولكن الجو العام كان متوترًا.

أول هذه الأمور أن أختى الكبرى أحبت مصريًا مسلمًا، وكانت شغوفة به، تخرج معه فى جراءة وتذهب لزيارة أهله دون خجل.. وإذا بهما يقرران الزواج.. المدهش الحقيقى أن والدى لم يعترض أو يثور.

قال ببساطة مادامت حبت وقلبها طلب واحدا. صعب أن الواحد يغير رأيه.

لم يتوقع أحد أن تنتهى الأمور بهذه البساطة. فلقد كان الحب والرغبة بينهما فوق المستوى.

فرحت أمى كأى أم، وأهله أسعدهم أن يتزوج من الجميلة.. «آمال».

لم تكن «آمال» تهتم بشىء فى حياتها سوى بالحب ببساطة لا تفهم ما يكون هناك من فرق بين الناس فى الدين أو الحياة؛ أو لماذا حتى يتقاتل الناس؟

فوالدى له علاقة بحكم عمله بالطبقات الشعبية. بل إنهم كانوا يعتبرونه طبيبًا شعبيًا.

سر العطارة أن يكون لديه القدرة على وصف العلاج الشعبى أو القديم أو العربى بالأعشاب.

إن تركيبات الأعشاب أعطت لوالدى القدرة ليتعرف على كافة المستويات فهناك الأثرياء من أبناء البلد أو الفقراء الذين يحتاجون لعلاج بدءًا من البرد وحتى المقويات الصحية.

أهم شىء إن حياتى كانت رائعة فى شوارع مصر الجميلة حتى مصر الجديدة، الجديد الذى يعيش فيه كل الأثرياء. وحى الزمالك (السفارات والباشوات)، وهكذا كانت تنقسم الأحياء.

الملك هو الرجل الليبرالى، الذى يعيش كأنه ملك أوربى خرج من الحرب العالمية مهزوما، لأنه كان يميل للألمان أكثر من الإنجليز. وعمى كان دائمًا يهـ ، بالسياسة، ويقول لنا دائمًا:

– الألمان عملوا مصيبة.. قتلوا اليهود الألمان.. هاييجوا فلسطين ويعملوا مشاكل فى المنطقة، ولو قسموا المنطقة اثنين.. هانعيش فى أزمة كبيرة.

عمى كان مثقفًا جدًا، يقرأ كتب التاريخ، بل يقرأ طوال النهار له نظارة طبية سميكة وشعر مسترسل ناعم ولا يعبأ بنظافته كثيرًا، يفكر فقط فى أن يقرأ طوال النهار.. شريك فى مكتب محاماة ولأول مرة أسمع عن كلمة شيوعى سمعتها عن عمى.

فلقد شجع عمى والدى على أن تتزوج «آمال» أختى من مصرى مسلم قائلاً له:

– الدين كله واحد يا خويا.. والناس بكره كلها ها تكون شيوعيين.. الشيوعية خير على الناس مفيش فرق.

من ضمن المشاكل التى حلت علينا.. هو اعتقال عمى الشيوعى وكان فى زنزانة واحدة مع الإخوان.

أُفرج عن عمى بعد فترة قصيرة، ولكنه اعتبرها تجربة رائعة، أن يعيش بين أفكار مختلفة، وأن يصمد أمام الآخرين مستعرضًا ثقافته الكبيرة، فلقد قرأ كل الأديان ويستشهد بكل الآيات ومؤمن بماركس.. محرر البشرية والعبيد ومحطم الفواصل التى بين البشر.

لست أدرى لماذا أتعاطف مع عمى؟! مع أننى صغيرة السن فإن ميولى الفنية كالموسيقى والقراءة جعلتنى أتأثر بكل كلمة يقولها لى.

«ياسمين» أختى الكبرى، تحب هذه المرة شابًا مثقفًا يعمل مدرسًا، أحضرته لدينا فى المنزل على أنه زميل عمل.

نظرت أمى لها مبتسمة قائلة:

- المرة اللى فاتت أختك مشيت مع مسلم، المرة دى أنتِ مع مسيحى.

وضحكت قائلة:

- كلنا واحد.

ردت عليها ياسمين متسائلة:

- يعنى مصريين ولا يهود مصريين ولا جنس تانى.

ردت بفخر:

- إحنا مصريين.. وأصل المصريين يهود وبعدين بقت الأغلبية أقباط وبعدين الأغلبية مسلمين.

- يعنى إحنا إيه؟

- أنا عارفة إن إحنا من سنين طويلة.. يا بنتى الشعب المصرى طيب ما تلاقيش حد أحسن منه.

- طيب عرفت منين إنه طيب وأنت ماشفتيش غيره.

ردت متأكدة من كل كلمة:

- يا بنتى الحى اللى احنا فيه من كل ملة.. جريجى على طليانى أرمنى شوام.. والمصريين بيتعاملوا معاهم وبيتعلموا منهم.. هو أنت أول مرة تعرفى رأيى.

احتارت ياسمين فى الرد وصديقها فى الخارج يجلس مع أمى.

- أصل يا ماما بحبه.

ضحكت هازئة:

- ليه المرة دى حب.

– لأنى ببساطة مش عايزه أتجوز حد من قرايبنا.. شايفة إن دى حاجة حلوة كده.. وافقى يا ماما.

– يا بنتى مفيش مشكلة انتى عارفة أبوكى وتفكيره إيه؟!

وهكذا انتهى الحوار.. ونظرات ياسمين إلى جوزيف تؤكد أن بينهم الكثير من الحب بمراحل.. أى تخطى مرحلة الحب إلى الالتقاء.

وأصبحت أفكر فى كيف سيتم الزواج إن حدث فى الكنيسة أو المعبد أو الشهر العقارى.

جلست إلى عمى «شحاتة هارون» فى حجرته المملوءة بالكتب أسأله، بجسده النحيف وشعره الكثيف الساقط على جبينه، وملامحه الدقيقة وعيناه الثاقبتان وعليهما نظارة القراءة وله شفتان دقيقتان مرسومتان حينما يتحدث تحب أن تنظر إليهما.

– عمى.. أنت ما بتزهقش؟..

– ليه.

– بتقرأ كثيرا.

– هاقرأ لحد الكتب ما تزهق منى.

– عارف إن ياسمين جابت صاحب ليها.. مسيحى.

رد ببساطة:

– قالتلى.

– وإيه رأيك؟

– حاجة جميلة.. وهايلة.

– ليه؟!

– لأن الإنسان لما بيحب وقلبه يدق.. ما يعرفش غير حاجة واحدة بس. اللى بيحبها مش مهم أبوها أو أمها.. يعنى دينها مش مهم أى حاجة غير الحب.

– وانت يا عمو ليه مش متجوز.

– لأنى باحب واحدة.. ومتفقين ما نتجوزش.

– معقولة يا عمو كده.

– ليه مش معقول.. نحط نفسنا ليه فى مشاكل الجواز والكلام والمصاريف.. الحب أغلى من أى حاجة.

– انت ما حرمتش من السجن إنك مالكش دعوة.

– أبدًا، كلنا متفقين إن الملك لازم يمشى، وتيجى حكومة هى اللى تحكم.. وحزب قوى.

هززت رأسى.

– حزب شيوعى.

رد بثقة:

– شوفى الشيوعية نظام.. والحكاية مش بسيطة بتلغى الفروق بين الناس وبتلغى الفقر والمرض.

واحنا مصريين.. مسلمين ومسيحيين وأديان وأفكار كثيرة، ولكن لما كل واحد يحس إنه مفيش فرق بينه وبين غيره.. هاتكون الحياة رائعة وجميلة.

– يعنى أنت بتحب الأديان ولا بتكرهها؟!

رد بثقة كاملة:

الدين بحبه لأنه فيه خير كتير.. ولما يكون فيه تعصب يكون فيه حرب، وأنا باكره الحروب.

ولعلمك الفرق بين الأديان مش كتير، اللى عمل المشاكل حروب الناس وجهلهم.

قلت بسرعة:

– يعنى شوفت هتلر قتل مننا كتير.

رد بثورة:

– ما تقوليش مننا، أنا زى كل الناس قتل البشر قتل المدنيين.. مفيش فرق بين اللى قتله هتلر فى ألمانيا واللى العصابات الصهيونية بتقتله من الفلسطينيين.. دول بيقولوا متفوقين وأصحاب أرض يقتلوا الناس فى بيوتهم وياخذوا أرضهم.

– سمعت أنهم اشتروها.

هز رأسه يأسًا:

– هو فيه حد ملوش بلد، ممكن أرض، بيت، ممتلكات، ولكن بلد لأ.

– ليه انت مش متحمس ليهم.

– لأنهم أغبياء.. ها يعيشوا لوحدهم منعزلين.. شوية صغيرة (قلة).. وسط مجموع كبير بيكرههم.. أسوأ شىء الإنسان يعيش فى كراهية.

على العموم انتى لسه صغيرة مش عارفة كتير، حاولى تقرئى.. القراءة فى الأول بتبقى صعبة، وبعدين بتكون سهلة.

نظرت إليه فى حيرة.

– أصل أنا مش عارفة الناس بيتهيألها ساعات على أنى مختلفة عنهم.

– أبدًا.. أبوكى كل الناس بتحترمه.. أمين على فلوسهم يديهم حقهم، مايسرقهمش لا فى الميزان أو غيره.. الكل بيحبه وبيثق فى كلامه وتجارته ماشية على حب الناس له.

نظرت إليه فى مودة قائلة:

– أنا بحبك قوى يا عمو.

هكذا كانت علاقاتى، لم أكن أشعر فيها إلا بالخير فى أرض بلدى مصر، وأخبار فلسطين تأتى إلينا متفرقة، بأن هناك الكثير من اليهود والأوروبيين، يقتلون ويسرقون أراضيهم.. وشعرت بأن بلدى مصر ينقسم على نفسه بين المطالب بالجهاد وبين الجلاء للإنجليز بسبب سياستهم لأنهم غرباء بينهم.

كنت حتى هذه اللحظة، لا أعرف سوى اللغة العربية قراءة وكتابة، وتعلمت بعضا من الفرنسية بالمدرسة، حيث إن معظم أولاد الذوات يذهبون للمدارس الفرنسية.

إن كثيرين من اليهود بالمدرسة ليست لديهم بطاقة جنسية مصرية، إنهم فقط يفتخرون بكونهم من فرنسا أو أوربا جاءوا مع البعثات الأجنبية فى أيام «محمد على» أو «إسماعيل باشا» وقت افتتاح قناة السويس.

شعرت أننى ضائعة بين حقيقة نفسى، ووجدت نفسى أنغمس فى الموسيقى مع مجدى فى ثنائى هائل هو بالبيانو وأنا بالكمان أو العكس، وهكذا مضت الأيام حتى جاءت حرب فلسطين.

حرب فلسطين.. أكدت لى كلام عمى، إن الأديان تصنع الحروب والذى لا يعرفه أو يدركه أحد أن عمى مع حزبه الشيوعى، كان ضد

وجود إسرائيل. ولقد خطب عمى أكثر من مرة فى تجمعات وندوات يدعو للجهاد والحرب ضد دولة إسرائيل.

اعتقد البعض أنه منافق. والآخر جاسوس. والبعض أنه يدعى ذلك لكى يتجنب لوم الناس.

أما أختى «ياسمين». فلقد أسرعت بالزواج من «جوزيف» أى «يوسف» أو (جو) كما يدعوه أصدقاؤه.

الزواج تم فى الكنيسة، فلقد اعتنقت الدين المسيحى لكى تتزوج منه والحقيقة الأكيدة.. إنها كانت سعيدة جدًا.

حرب ٤٨.. جاءت لى بذكرى جديدة. لقد أصبحت أنثى كاملة. تثير إعجاب الناس وخاصة الشباب منهم.

لم يوافق أبى على أن أختلط أنا وأخى بباقى المصريين اليهود الذين انقسموا على أنفسهم بين مؤيد لإسرائيل.. وبين المؤيد لمصر الحاوية للجميع.

لقد انبهرت مثلى ومثل غيرى بقوة إسرائيل الجديدة. كيف هزمت الشباب العربى.. أكيد لديها القدرة والخبرة من أيام الحرب العالمية الثانية.

مساكين الشباب. مساكين أهل فلسطين المهجرين فى غزة والمتيسر منهم يأتى للقاهرة ليعمل ويحاول أن يندمج مع أهل مصر.

رحب أبى بدون عداوة بهم، وقدم لهم المساعدة. فلقد نالوا عذابا لا يصدقه إنسان.

الحقيقة.. الكثير من المصريين كان يتفهم أننا مصريون بحكم العشرة والتجربة والحياة التى دامت سنوات طويلة.

والدى يجلس دائمًا بين أصدقائه بعد نهاية عمله، ومنذ حرب فلسطين لا يجلس بينهم، يخشى أن ينظر إليه الناس نظرة قاسية.

مرت بى أيام صعبة. لأول مرة منذ طفولتى، أتساءل عن معنى أن يكون الإنسان يهوديا أى مختلفا فى الدين والشكل والجنس واللون.

والدى العطار، محله فى مكان شعبى، يكسب كل يوم محبة الناس بابتسامته.

بدأت أفكر فى أن ألتمس للناس العذر، وأحاول أن أزور أقاربى اليهود، لعلى أنتمى لشىء معهم، وندفئ بعضنا بحبنا لبعض.

الناس تنظر إلينا، على أننا بلا رحمة، اغتصب اليهود الذين هم نحن أرض فلسطين من أهلها المسالمين.

لم أكن أريد أن أعيش هذه المشاعر، لجأت لأمرين، أبدعت فى فن الموسيقى.. وفى تعلم اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفرنسية بالمدرسة.

وكأننى أؤهل نفسى للسفر خارج هذا البلد، وهناك سأستطيع التحدث بلغات مختلفة وأتعايش مع آخرين..

أصبت هذه الأيام بصدمة كبيرة، تحولت من طفلة إلى أنثى لها عادة شهرية تعرف معنى العادة أو فترة الحيض. أى أننى كاملة الأنوثة يمكننى الإنجاب.. تغيرت مشاعرى وأفكارى وجسدى، لقد أصبحت أنظر للمرآة كثيرًا، وأتذكر «أمل وياسمين».. وأتمنى أن أكون مثلهما حبيبة وزوجة وأما، وأحلاما تدفعنى للتفكير فى الرجال وانبهارهم بى، ولم أجد فى رأسى سوى «مجدى» العازف الوسيم لأحاول أن أجبره على أن يحبنى ويعترف بى كأفضل فتاة عرفها فى حياته.

نذهب لأماكن الرقص والتسلية والرياضة واللعب واللهو، وحرب فلسطين قد نسيها الناس، وأصبح هناك قريب منا على الحدود دولة اسمها إسرائيل، ونحن فى مصر اليهود المصريون حائرون، هل نذهب للعالم الجديد الذى فيه الجديد، شعب يقهر المستحيل، فى مستعمرات شباب أو نبقى مع أهلنا وحياتنا بين العرب رغم كراهيتهم لإسرائيل وبالتالى لنا.

هل يقولون إنهم يحبون مصر ولا يعرفون غيرها.. بل إن مصر المباركة لموسى نبينا وُلد بقصر فرعون، وأهل مصر هم أهلنا هكذا أشعر دائمًا منذ أن وعيت أن أقرأ وأكتب.

عمى «شحاتة هارون»، مصدر ثقافتى وشخصيتى، أحيانا يصطحبنى إلى مكانى المفضل مع الموسيقى والعزف.

وشعرت من نظرات «مجدى» إلىّ أنه معجب بى، فاقترب منى وشعرت أنه فتى خجول.. فشجعته بابتسامة على صداقته.

وأخذت منه موعدا للقاء فى بيته حيث إن هناك حفل عيد ميلاده بعد أسبوع، ويتمنى أن نعزف له ونغنى أيضًا.

لست أدرى لماذا أعُجبت بليلى مراد وأخيها منير، ربما لأن أحد أقاربنا أكد لى أنها قريبة لنا.

الفن المصرى يستهوى اليهود المصريين، كلما أعبر بهذا المعنى أكرهه، فأنا مصرية ولست يهودية، البلد لدىّ أقوى من العقيدة لأننى أتنفس هواء هذا البلد أحفظ بيوته وحاراته وحياته وأعيش مع عاداته أحترمها حقيقة، أحترمها لأنه مهما كان فيها من عيوب فهى أيضًا بها من الصفات الجميلة.

فى حفل عيد الميلاد والجو هادئ، عبر «مجدى» لى عن إعجابه الشديد بل بحبه الذى لا يجعله ينام.

وكان عمى يقف بعيدًا، وكأن عمى هو الذى شجعه على أن يفاتحنى بمشاعره.

دق قلبى بسرعة شديدة، فأمسك بيدى وشعرت بأن هناك فرقا بين أن تمسك الفتاة أى يد أو يد حبيبها.

قلبى تفتح للحب، للحياة، للجديد، للمشاعر التى تنطلق للسماء، وهكذا عزفت هذه الليلة.

واستحسن الجميع عزفى، كل هذا فى قاعة فرح المخصصة للطائفة اليهودية المصرية، ولكن كان هناك أيضًا الكثير من أهل زوج أختى من المسلمين والمسيحيين فى هذه الأثناء لم يكن أحد يشك أن المصريين هم مزيج هائل من كل المستويات.

قابلت عمى فى اليوم التالى سألته عن زوجته أو عشيقتة او حبيبتة او رفيقتة. قال لى:

– كانت موجودة وكنت باتكلم معاها.

– ما تعرفنى بيها يا عمو.

– ده سر وبكره هاقولهولك.

قلت فى خجل:

– طيب مش عايز تعرف سرى.

ابتسم وهز رأسه:

– «مجدى» اعترف ليا.

– وبتقولى ليه.. علشان كنت باراقبك من بعيد.

فكرت وقلت بسرحان:

– لا.. لأنك أنت اللى قلت له.

وبسرعة.

– على إيه.

– على الاعتراف.

ابتسم ولم يدار وسألنى:

– مش كده أحسن؟

– أحسن بكتير يا عمو.

وهكذا كانت علاقتى بكل الناس فيها من الحب كأنها زغرودة فى القلب تخرج مع الأنفاس إلى العالم كله.

لم تمض أسابيع حتى كنت فى بيت «مجدى».

لم أصف لكم «مجدى» بعد.. فهو طويل القامة يلبس نظارة طبية ولكن، أجمل ما فيه، نظرات عميقة ساحرة.. ذكاء لامع لا يستطيع أن ينكره أحد.. يلاحظ كل كبيرة وصغيرة، وكأنه يقرأ وجوه الناس وأفكار الناس.. نحيف البنيان له انحناءة فى ظهره وكأنه يلغى طول قامته.. يبتسم دائمًا، شفتاه رقيقتان، له أنف مستقيم كبير نوعًا.. يمشى بسرعة وكأنه يتعجل أمرًا.. يقف أحيانًا فى الطريق ينظر يتأمل وأخيرًا يتكلم.

لست أدرى.. لماذا.. كنت سهلة معه، وكان سهلا معى، يحدثنى فأستمع إليه.. أتحدث فيطرب لكل كلمة أقولها.

أخيرًا اعترف لى برغبته فىّ.. لم تكن الأمور صعبة، فأنا أحبه وسوف أمنحه ما يطلبه، ولكن الصعوبة كانت فى تكملة مشوار المستقبل.

فى بيته تعرفت على أمه المتلئة.. المتشككة فى كل تصرفات ابنها التى تعتبرها غريبة.

والده موظف يمتلك صيدلية قريبة.. يحب القراءة مثل عمى، لديهم مكتبة كبيرة.. ليس لديه إخوة كثيرون.. أختان وأخ يكبره يعمل فى بنك.

لقد كان أكبر منى بسنوات قليلة، وكنت أتمنى أن أبدو أننى أكبر عمرًا.. فزمالتنا لم تكن فى الجيرة أو المدرسة فقط ولكن فى مدرسة الفن.

جاء اليوم الذى كنت أتمناه.. أن تتلامس شفتانا.. ونعيش متعة لقاء الجسد ما أحلى هذا اللقاء، إنه بداية التعارف بين معانٍ كثيرة من الحب والعطاء.. والرغبة والارتواء.

نظرات أمى تؤكد لى أنها تعرف أننى طلت أشياء، كنت أتمنى أن أبعد نظراتها بأى طريقة..

والدى وعمى مشغولان بكلام كثير.. وأهم شىء أن مصر على صفيح ساخن.

لم تمض أيام حتى وقع حريق القاهرة.. ودق قلبى خوفًا أن كثيرًا من محلات الأجانب فى مصر حُرقت.

وكأنها مدبرة ليغادر هؤلاء الأجانب مصر.. حتى تصبح مصر عارية من تعاظم فكرة تعدد الثقافات.

شعور الأرمن بغربتهم يتفاقم وشعر الشوام أن المصريين سيتخلون عنهم سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين.

واهتز الأداء فى البنوك، فكل شىء وارد، وكل جالية أصبحت تبحث عن طريق للفرار.. وتحويلات الخواجات المصريين لأقاربهم فى الخارج زادت، وكأن مصر موشكة على الخراب.

والدى كان مطمئنًا فهو عطار.. شعبى.. يحتاجه ابن البلد أكثر من باقى الناس، وكل الناس تناديه بأبو السعود أو «مسعود» أو حتى بالحاج مسعود.. وهو يتقبل كل الألقاب بابتسامة ويدرك أنه يحمل سر علاج اكتسبه من أجداده ومن طول سنين عمله.

الجيش المصرى يدخل شوارع القاهرة لتنظيمها.. لا أستطيع أن أنسى كل هذه المظاهر أمامى والمظاهرات التى قامت بحرق الناس والبيوت والمحلات وضد الأجانب المقيمين بمصر، وكأنها تؤكد على أن الأجنبى يجب أن يترك البلاد حتى ولو كان مولودا بها يتحدث لغتها ويساهم فى العمل بها..

شهور قليلة مضت.. وقد أصبحت الآن مدرسة للغة الفرنسية يأتى لمنزلنا الصبية لأعلمهم قواعد اللغة، وأصبح لى دخل خاص، وكنت قد وصلت إلى مرحلة متقدمة فى التعليم المدرسى.. وأحب أن أدخل الجامعة وعمى مازال كما هو.. ناشط فى الحزب الشيوعى المصرى المحظور وإخوتى البنات سعيدات بما نالهن من حب أزواجهم، وأخى «هارون» يعمل مع أبى بعد الظهر بعد أن حصل على عمل فى مكتب محاماة لدى قريب لنا.

أحبنى كل الصبية الذين تعلموا على يدى، وكنت أعلمهم أيضًا العزف على الكمان.

وأهم شىء أننى و«مجدى» أصبحنا قريبين جدًا يقرأ ما أقرأه، ويعيش مع أفكارى، وبيت عمى الواسع الكبير يضمنا وكأن عمى شاهد على علاقتنا ويعطيها حقها وشرعيتها.

فى يوليو تحرك الجيش.. واحتل مواقع القاهرة.. وأعلن الحركة المباركة.. وقد حدث أمران من الصعب نسيانهما فى ذلك الوقت:

أولهما: فى صباح ذلك اليوم، كنت أعزف مقطوعة استعدادًا لكى ألتحق بفرقة موسيقية أنا ومجدى، الجو حار، وملابسى خفيفة فى بيت عمى الذى خرج كعادته ليترك لنا مجال الحب والارتواء.. إذا بمجدى يغرق فى عزفه.. وكعادتى أمسح عن جبينه العرق بمنديلى إذا به يقبلنى قبلات متلاحقة وكأن الجنون ثالثنا.. وإذا به لأول مرة يتجرأ ويسحبنى إلى غرفة نوم عمى المكدسة بالكتب والأوراق ونصبح على فراشه والحر يأمرنا أن نخلع ما يسترنا.. لم تكن المرة الأولى التى كانت الجراءة تدعونا للارتواء، ولكن هذه المرة كان يريد أن يعلن أن علاقتنا قد بدأت بين فتاة وفتى سيتحولان إلى رجل وامرأة فى أول تجارب الحب معًا.

يا له من حب عظيم يعلن عن نفسه لهذا العالم..

أغمضت عينى، وأنا مدركة أنه يفض غشائى، برغبتى، وبدون ندم، ثقة فى نفسى وفيه وفى هذا العالم الجديد الذى سأدخله كامرأة.

شعرت بنظرات التوتر فى عينيه، قبلته مؤكدة سعادتى، فشعر باطمئنان وسعادة وقال لى بمسئولية جادة:

– أنا بحبك ومفيش حاجة هاتفرقنا إلا الموت، إنت حياتى ومراتى وكل حاجة فى الدنيا دى.

– أنت توأم روحى.. من ساعة ما شفتك من ساعة ما لمستك من ساعة ما نمت معاك.

جاء صوت من بعيد.. شعرت بخجل ينتابنى ويدفعنى للإسراع فى ارتداء ملابسى.

وكان عمى مدركًا لما قد نقوم به.. خرج إلى الشرفة يدخن سيجارة.. لنرتدى ملابسنا ونخرج إليه.. ومجدى يمسك كتابا فى يده.. قائلاً لعمى:

– ممكن أستلف الكتاب ده.

فنظر إلىّ عمى قائلاً:

– بس تحافظ عليه.. لأن حرام كتاب جميل زى ده يتبهدل.

– معقول يا عم «هارون».. أنت عارف كويس قوى قد إيه أنا ملتزم وبحافظ على الحاجة.

– هاتروح الأوبرا إمتى؟

– الجمعة الجاية.. هاتيجى طبعًا.

– طبعًا.. طبعًا..

ثانيهما: هو فى هذه الليلة التى قامت فيها حركة الجيش.. التقيت بعمى فى الصباح أستطلع رأيه.

كانت السعادة فى عينيه.. والرغبة فى الحركة أكثر وأكثر تزداد لديه إنه مقتنع بخروج الملك، ومقتنع أن مصر لديها القدرة والإمكانيات لتكون عظيمة.

وأن أفضل شىء لمصر هو النظام الشيوعى الذى سينظم الناس تحت فكر واحد ورأى واحد.. وشخصية واحدة.

سألته فى دهشة:

– هو فيه يهود بيشتركوا فى السياسة فى مصر؟

هز رأسه مؤكدًا:

- طبعًا.. طبعًا..

- «تطاوى» باشا.. زعيم ثورة ١٩ وكان وزيرا.. حتى علم مصر فيه ثلاث نجوم مسلمين ومسيحيين ويهود..

اشتركوا فى كل حاجة.. قماشة واحدة، نسيج واحد مش ممكن حد يقدر علينا فى كل الأماكن حوالينا.. تركيا.. قتلت الأرمن مفيش بلد فى المنطقة إلا مصر والعراق.. وممكن الشام فيها كل الجنسيات والملل والطوائف زى مصر.

كانت الأمم المتحدة.. تيجى هنا فى مصر وتقول عنه شعب طيب متسامح مبدع بيحب الحياة من زمان من أيام الفراعنة.

- طيب شوفى البيرة أول صانع ليها مصرى.. الآلهة الفرعونية كلها بتدور عن الحق والعدل.. حتى موسى جاء من مصر وخرج من سيناء.. وعيسى جاء مصر.. وإبراهيم اتجوز هاجر مصرية.. طبعًا أبو إسماعيل.

يا حبيبتى مصر دى جميلة رائعة مش ممكن أسيبها ولو على جثتى أنا ليا فيها زى كل الناس.

وهكذا صدقت عمى.. ولكن جاء اليوم الذى سألته عن توجهات الثورة.

شوفى «جمال عبد الناصر» كان عايش جنبنا فى العباسية والظاهر وعلاقته هايلة وجميلة مع اليهود.. يعنى مفيش مشكلة إلا فى إسرائيل.. ولكن ده مايمنعش إن فيه فرق بين الدين وبين مستعمرين معتدين على أرض وشعب.

لم يمس عمى برغم آرائه الثورية. بل كان هناك أصدقاء له من كل طوائف المصريين.

حتى الإخوان الذين عرفهم فى السجن.. كانوا أحيانًا يتزاورون معه.

هكذا كانت الأمور فى عام ١٩٥٢م الحركة التى تغيرت إلى ثورة.. حتى جاء اليوم الصعب فى حياة كل يهودى مصرى.

زار «محمد نجيب» الحاخام فى المعبد.. وأكد له أن اليهود جزء من الكيان والنسيج المصرى.. والدى كان سعيدا بأن الحركة الجديدة تؤكد مقولته الدائمة إن اليهود المصريين هم مصريون.

ولكن الأيدى الخفية التى تريد دائمًا أن تعبث بأرواح الآخرين، استطاعت أن تجند بعضا من اليهود المصريين لكى يفجروا المركز الثقافى الأمريكى بقنبلة محلية الصنع.. وأثناء اختباء أحدهم فى سينما، تم الكشف عنه، ولم يتمكن من تحقيق هدفه.

القضية اسمها (سوزانا) أو فضيحة لافون.. لأن الجالية اليهودية المصرية زج باسمها.. للوقيعة بين النظام الجديد وحركة الضباط فيما بعد أصبحت اسمها ثورة، وبين النظام العالمى باستخدام عملاء يهود مصريين اختاروا أن يكونوا فى صف إسرائيل قبل أن يكونوا فى صف بلدهم الأصيل مصر.

تمزق قلب أبى، فلقد أصبح متأكدا أن الجسد المصرى يتمزق، وثار عمى ثورته المعتادة ولجأ للكتب يقرأ ويحاول أن يفهم لماذا انخدع هؤلاء الشباب بهذه الأعمال.

حاول بكل جدارته أن يمنع أى انشقاق بين الطائفة، بل يؤكد أنه لا يعرف سوى مصر، ونظرات الناس له تعكس ريبتها بأن كل ما هو يهودى هو خائن.

لأول مرة أشعر فيها أننى من جنس آخر أو بغربة بعيدة من بلدى.

ذهبت لمن اختاره قلبى.. احتضننى كالعادة ونمت على صدره أسمع عزف قلبه.. لنقترب أكثر وأكثر من بعض، وكأن أجسادنا الملجأ الذى نحتمى فيه من تعصب وجهل الآخرين.

وهكذا كانت سعادتى فى هذا اليوم، الذى لا يوصف أبدًا، فلقد نهلت من الحب كعروس فى شهر العسل، وهو يخبئنى داخله بالحب والرغبة المستمرة فى إشعارى بأننى لست وحيدة.. بل يشعرنى أننى أنا وهو من الممكن أن نواجه العالم كله.

نواجه إسرائيل ذلك الكيان الاستعمارى العنصرى، ونواجه تعصب بعض المصريين المتشككين فى حبنا لمصر التى اختارها الزمان لنا.

لم يكن حبى لمجدى وليد الصدفة، إنه القدر الذى جمع بيننا، الموسيقى، الفن، جعلانا نرتبط برباطٍ لاصقٍ، لا خوف منه يعطى الأمان والثقة والسعادة.

حينما أحسب عمرى كله، لا أجد من السعادة الحقيقية فيه أوقات الحب التى جمعتنى به.. كنا نأكل معًا.. نعيش حياة شبه تامة معًا نتنفس الحب معًا..

حينما حولنى إلى امرأة، وأشعرنى أننى أعيش أجمل لحظات لفتاة تجرب وتتمتع بنشوة الحب كنت أسمع الألحان الموسيقية الرائعة التى تزفنا إلى السعادة الإنسانية تخترق كل الفواصل بين البشر، تخترق بالحب الزمان والمكان والعقيدة والأديان.

الحب والموسيقى، والالتقاء على هدف واحد ورغبة واحدة تصل بالإنسان إلى السعادة التامة.

هناك من بعيد عمى يؤازرنى ويؤكد لى أن ما اخترته فى الحياة هو الصواب.

الشىء الغريب فى عمى.. أنه أصبح مؤمنا إيمانا مطلقا بالثورة، وأنها طريق الخلاص للمصريين.

لا يهمه أن يتشكك فيه أحد، إنه يؤكد لهم أنه واحد منهم، وأن الإنسان فى النهاية إنسان، وأننا مهما حاولنا أن نخلق فوارق وفواصل بين البشر فسيظل الإنسان كما هو الإنسان الذى يعطى روحه وكيانه من أجل الاختبار الأصعب وهو الإنسانية للجميع، وما صدر عن عمى هو شىء مؤقت لا يرى الإنسان فيه الخير الذى يحيطه فى كل مكان.. حتى هو موجود فى الأديان.. عملية بسيطة أن يتثقف الإنسان.. فيجد فى الأديان الراحة والأمان.. يجد فيها كلاما جميلا متشابها.. يحتم على الإنسان أن يفكر فى أخيه الإنسان، حتى لو كانت بين طياته تعصب غبى أو حتى أعمى.

الدروس الخصوصية التى كنت أعطيها كانت تعيننى على أن أعيش حياة كريمة، بل متميزة، أشترى ما أرغب فيه، ولا أفكر أن هناك ميراثا قديما فى عائلتى هو تحويل النقود إلى ذهب، وقد كان.

أفضل شىء لدى هو ما قدمه «مجدى» لى أول مرة، غير ما قدمه لى فى عيد ميلادى، وتعاهدنا على الارتباط الأبدى.

كنا حريصين دائمًا على أن تكون علاقتنا فى أمان، وذات مرة تأكدنا أنا وهو أننا نعيش لحظات السعادة والتعاسة، فلقد أصبحت لأول مرة، أشعر أن هناك ما يسبح داخلى، وأننى من الممكن أن أكون أما.

كنت صغيرة السن وخائفة، وأدرك ذلك، وبصفة والده طبيب، وهو صيدلى، فلقد عاوننى فى التخلص منه، ورغم الإرهاق البدنى، والتخلص مما كان يسبب المشاكل لنا إلا أننى بكيته حتى يومنا هذا.

فلقد أرجأنا كل شىء حتى يتم تخرجه، وحتى تتضح علاقتنا. مع أن عمى قال لنا ببساطة ذات يوم ونحن فى زيارته وكان على وشك ترك شقته لنا.

– كده كده.. هايتم الجواز عرفى.. اتجوزوا أحسن عرفى.

وهكذا كنت أستعد للزواج به، وأعلمت إخوتى البنات، ولقد تعمدت أن يزورنا.. ورحب به الجميع، وسعادة والدى تتأكد فنحن مصريون. وليس هناك واحدة من بناته قد تزوجت من أقاربه أو يهودى من دينه.

وبين هذه الاستعدادات والسعادة المطلقة التى كانت تحيط بنا، فوجئنا بمشاكل هائلة تهيم وتحيط بكل اليهود، سواء أكانوا من أصل مصرى أم من الزائرين دون جنسية.

فلقد هاجمت إسرائيل مصر واحتلت سيناء، وحدث عدوان الإنجليز الراغبين فى العودة وساهمت فرنسا أيضًا فى هذه الحرب.

وللأسف الشديد، فلقد اعتقل عمى مع كثير من رجال اليهود فى القبض العشوائى بدون تمييز.

وأصيب والدى بجلطة أقعدته فى منزله، ليتحول فيما بعد إلى رجل حزين وهزيل ويفارق الحياة.. ونحن فى غاية الحزن.. وخاصة أمى ولم نكن نتوقع أن يحضر جنازته وتعازيه جيرانه من المصريين بكل الملل، بل إن منزلنا كاد أن يتلى فيه القرآن.. وأننى شعرت لأول مرة بتفاهة

أن يعيش الإنسان فى مجتمع يحبه ولايقدره ويصنفه على أنه عدو لأنه ورث عقيدة أو دين مختلف.

مات أبى وتركنا، وقام أخى بفتح المحل. وأمى كانت تساعده وقفت فى المحل وحيدة معه وهى حزينة.

ولكن الأحزان دائمًا لا تدوم، فلقد خرج عمى من المعتقل، خاصة بعد الانسحاب الإسرائيلى، وأصبحنا نشعر أننا نملك جلدا مختلفا.

كنت أنا ومجدى نذهب لزيارة شقة عمى، وهو بعيد فى المعتقل، وكنت أواظب على إعطاء دروس الفرنسية لأبناء الباشوات وأولاد البلد وكانوا يواسوننى، وكأننى غريبة عنهم.

وفى غمرة هذه الأحزان كان هناك طوفان من مغادرة الآلاف من اليهود المصريين إلى أوربا ومنها إلى إسرائيل.. وهكذا فقدت الكثير من الأهل، وفقدت الكثير من الصفة المؤكدة أننى مصرية.

هذه الغارة الإسرائيلية وهذه العداوة من الجيران حولتنى إلى تمزق بغيض، فلم أعد أفهم من أنا هل أنا مصرية أو يهودية ستتحول إلى الإسرائيلية؟

يتناقل الأهل فيما بينهم أن «جمال عبد الناصر» فى محادثاته فى الجلاء كان لديه محام يهودى، بل إن جيران «عبد الناصر» فى الظاهر كانوا من اليهود ولم يكن يبغضهم بل كان ودودًا معهم، ولكن هناك فى السياسة، وتدخل المصالح من يرغب أن يترك اليهود مصر للاستيلاء على ما يمتلكون، أو تحويل أنظار الجماهير لما يلهب المشاعر.

لم يقل «عبد الناصر» أبدًا.. اليهود، بل كان يقول الإسرائيليين والصهاينة. وحاول بقدر الإمكان النهضة ببلده الذى يعانى من الفقر والمرض والجهل.. وقد أكد لى ذلك كثيرًا عمى تأكيدًا لا يقبل الشك.

حدث تطور مذهل، فلقد استطعت أنا ومجدى أن نقنع عائلتنا بفكرة الزواج العرفى، كل عائلتى كانت شبه موافقة ولكن عائلة «مجدى» لم تكن بهذا القدر.. وخاصة أمه.

تم الزواج، ورفرفت السعادة علىّ.. وأصبح لنا شقة صغيرة قريبة من عمى الأب الروحى لنا.

لم تكن السعادة صعبة المنال، فلم نكن نرى إلا بعضنا ونعزف أحيانًا معًا. بل أحيانًا يطيب لنا أن نعزف فى الأوبرا مع الفرقة حين يطلب منا ذلك، فلقد كانت الموسيقى هى التى تدخلنا فى عالم الجمال والتحليق فى السماء وكسر كل الحواجز.

قد يقول البعض استحالة أن تكون هناك علاقة بين اثنين لا يكون بينهما خلاف أو شجار.

أريدكم أن تصدقونى لم يطل الخلاف بيننا كثيرًا، كل ما كان يحدث بيننا، إن حدث أن قال أحدنا رأيا واختلف معه الآخر أن تدمع الأعين فيأخذ أحدنا الآخر فى أحضانه حتى تهدأ النفس.

لا أنكر أننى تعرضت للكثير من محاولات الشباب معى، بل أحيانًا إلى خدش حيائى أو أنوثتى سواء فى الطريق أو وسائل المواصلات. ولكننى لم أكن أعبأ بأى شىء فلدىّ ما أملكه أكثر من أى واحدة أو ما يطمع فيه هؤلاء الرجال.. أملك الحب الذى يحلق فى السماء.

لم تدم سعادتنا سوى سنتين.. ليصيب زوجى وحبيبى الغالى إصابة فى القلب تمنعه من الحركة.. وعشت أطبّب فيه وأرعاه وعيناه تستحلفنى أحيانًا أن أتوقف عن العطاء وأتركه فى حاله ليتحرك فى هذا العالم المؤلم.

كنت أحتضنه فى ليله، وأسهر عليه ولا أنام، وأعطيه من الحنان والدمع ما لم تعطه واحدة فى العالم لحبيبها.

لم يصدق أهله وخاصة أمه، أننى أحببت ابنها هذا الحب، بل إن أكثر الناس تفاؤلاً كان يعتقد أننى سأتركه بعد شهر أو عام، ولكننى راعيته كل يوم عامًا بعد عام، حتى ظن الكثير أنه رحل، ولكننى كنت أواظب على إعطاء الدروس الخاصة، وخاصة أننى كنت قد تخرجت فى كلية الآداب.. ولم أعمل سوى بالدروس الخصوصية.

وهو فى أزمته الصحية، قد يتعكز علىّ ليخرج إلى الأوبرا لمشاهدة العروض الأجنبية القليلة، ثم يأخذنى لمحل قريب لتناول القهوة والحلوى، ولم يكن يتناول شيئًا فقط ينظر إلىّ بابتسامة فياضة.

لم يفترق عنا عمى أبدًا، بل كان يؤازرنا، وأصبحت كل يوم أعطيه الأكثر والأكثر من الحنان والدفء.

وفى زيارتى لبعض المتيسرين، حاول أحد الآباء مغازلتى، فلقد اعتقد أن زوجى مريض وأننى أحتاج لفحولة الرجال، إنه سيستطيع أن ينال منى، صددته بهدوء، كأننى بنت بلد مصرية حقيقية لا تملك إلا شرفها، وعلى من يريد أن يعبث أن يبتعد وهو فى عار مما ارتكب.

أخيرًا فى ليلة سوداء، فارقنى حبيبى ونور حياتى «مجدى».. لبست عليه السواد وبكيته، ودفن فى قبره، أزوره فيه دائمًا وأضع الزهور على قبره وأناجيه باكية حزينة.

ينظر إلىّ أهله فى عجب، ماذا كان يملك «مجدى» لأحبه كل هذا الحب، صحيح أنه فى نظرهم ملاك، ولكن لم يجدوا فى عائلتهم من مات زوجها لتبكيه كل هذا البكاء.

مضت سنوات وأنا متشحة بالسواد، والتحقت بفرقة موسيقية فى الأوبرا لأعزف وأنا أتذكر «مجدى» وكأنه بجوارى، حاول الكثيرون التقرب منى دون فائدة ترجى، وكأننى حجر صلب لا يمكن اختراقه.

مضت سنوات ورحل كثير من اليهود من مصر، ومازال محل والدى يعمل ووالدتى فيه.. حتى حدث ما لم يكن فى الحسبان.

بعد حرب اليمن.. وشكوى الناس من حرب بين عرب وعرب، أو بين أشقاء تحدث مشكلة نكسة ١٩٦٧.. ولم أكن أتمنى أن تحدث حروب بعد ١٩٥٦، ولكن القدر يقرر أشياء ونحن لا نستطيع إغفال قراراته.

هاجمت إسرائيل مصر كالعادة، ونحن فى منزلنا محاصرين بالجيران وكأننا نشارك فى هزيمتهم.

قال أحد الجيران فى افتراء شديد علينا، إن أخى كانت لديه بطارية يستطيع بها إرسال مراسلات وذبذبات لتوجيه الطيران الإسرائيلى.

المخابرات والمباحث كانت مدركة الموقف وعوملنا أفضل معاملة، ولكننى عدت إلى بيتى حزينة فلم يعد لى فى هذا العالم شىء..

مضت شهور أخشى على نفسى من الخروج من منزلى، وأصبحت أمى مريضة جدًا بعد ذلك الحدث، لتفارق الحياة بعد هزيمة ٦٧ بشهور،

فلقد تغيرت الحياة حولها، لم تعد صديقة للجميع، ولم تعد مصرية.. بناتها يتزوجن من مصريين بل يهودية ممقوتة غير مرغوبة.

أصبحت فى بيتى مع أخى، الذى مازال يعمل فى محل العطارة.. ولم يتزوج مقلدًا عمى، أو مفضلا الحياة السهلة فى التنقل من واحدة لأخرى.

فجأة قرر الرحيل.. مع مجموعة من أصدقائه إلى فرنسا، قلت له لن أغادر منزل أهلى أو ممتلكاتنا فى مصر..

رفض أخى أى توسل، وغادر إلى فرنسا فى جنح الليل لأبقى وحيدة قريبة من عمى الذى ذهل من تطور الأحداث.. ولم يعد يتحدث عن الم مع أنه كان سعيدا بالاشتراكية المصرية التى هى طريق الخلاص للشعوب.. وكثير من الناس يقولون إنه بلا دين أو مسيحى كاثوليكى أو مسلم.

فى ليلة سوداء دق الباب، ودخل خمسة رجال يقولون إنهم مباحث ليفتشوا البيت.

مباحث يصرون على إطفاء الأنوار، وأنا أعقد يدىّ على صدرى خائفة مما قد يحدث، أو المستقبل الصعب فى حياتى.. ساقنى أحدهم إلى غرفة نوم أبى وسألنى:

- متأكدة مفيش أى جهاز لاسلكى هنا.

- لا.

- احنا ممكن نسيبك دلوقتى.. لو برضاكى سلمتى لنا نفسك أوهنخدك ومحدش هايعرف طريقك.

نظرت إليه فى تحد تحول إلى خوف وببساطة شديدة هجم علىّ، دفعته عنى، صفعنى صفعة مؤلمة، أسقطنى على الفراش رفع عنى ما يسترنى، دفعته من منكبيه فبدأ فى تقبيلى من عنقى.. صرخت.. وضع يده على فمى.. وأكمل اغتصابى.

لم أصدق نفسى، تكومت فى الفراش، دخل الآخر، أقوى بنيانًا منه خلع ملابسه، وجردنى من باقى ما يسترنى وبدأ فى استكمال حلقات العذاب على جسدى وهو يكتم أنفاسى المتلاحقة. وقبل أن يخرج قال مستهزئًا:

- كده إحنا انتصرنا.

واستكمل الباقى فى النيل من جسدى الذى كف عن المقاومة أو الإحساس.. فقط البكاء على جسدى وعمرى وكيانى وكرامتى وحالى الذى لا غنى منه وعنه شيئًا.

تمت الجريمة البشعة.. وهم يسترقون السمع فقد يسمعهم أحد من الجيران.

بلغت الوقاحة أشدها من أولهم، حيث عاود الأول الاغتصاب فى وقاحة، وكأننى أصبحت جاريته، جسدى ملكه يعبث فيه كما يريد ولآخر مدى.

ليلة سوداء فى عمرى، لم يلمس أحد جسدى بعد زوجى، وإذا بمجموعة من الرجال فى مختلف الأعمار والأجساد تتناوب علىّ فى بساطة وكأننى جارية وكأننى حق لهم، ليس هناك من حق فى هذا المكان.

عمى كعادته.. يمر علىّ لديه المفتاح للشقة فى منتصف الليل، كان الباب مغلقا من الداخل خفت عليه وعلى نفسى.

ومرة واحدة يفتح أحدهم الباب من الداخل لينسحب عمى إلى داخل الشقة ويلكمه فى وجهه ليفر الجميع للطريق بسرعة متناهية..

لم يصدق عمى ما حدث لى، وبعد دقائق قليلة، حضرت المباحث والمخابرات العامة، وعمى لديه الكثير من الأصدقاء والمعارف الكبار، وتم رفع البصمات وتحويلى للمستشفى التى عملت اللازم بين استغراب الناس أن هناك وحوشا بهذه الطريقة.

مضت أيام قليلة.. وبعد تحقيقات مكثفة وسؤال بعض الجيران تم الكشف عن مرتكبى الحادث.. وتم اعتقالهم..

بل إن الأمور قد بلغت أعلى مستوى، فتم محاكمتهم بسرعة ونالوا أقصى عقاب.

وإذا بعمى يقول لى ذات صباح:

- محل أبوكى اتقفل.. وإيراد البيوت دلوقتى ماعدش ينفع زى الأول خدى بعضك وسافرى.

فى ذهول قلت:

- أسافر فين أنا ماليش غير مصر.. لو كنت عايزة أسافر كنت سافرت من سنين.

- لا هاتسافرى.. أخوكى عايزك.. جربى لو الحال معجبكيش ارجعى.

سألته فى دهشة:

- انت بتقول كده.. أسافر، وأسيبك.. ده أنا زى بنتك وبعد موت «مجدى» محدش فى الدنيا ليا غيرك.

- أنت لسه شابة وجميلة وحلوة.. والناس اتغيرت دلوقت مفيش حد بيقرب من يهودية مصرية إلا ويعتبروها إسرائيلية عدوتهم.. هو أنا مش شايفك، مابتنميش الليل وعلى طول مجروحة؟

والمحل هايقعد فيه جوز أختك أو أولاده.. ونصيبك فى الميراث هاحافظ لك عليه أو أصرفه بالطريقة اللى انت عايزاها. أنا بحب مصر واتبهدلت علشانها، لكن محدش اغتصبنى زى ما اغتصبوك.

أنا عارف إنك مش مسامحة، ولكن دول جاهلين متخلفين، حيوانات الإنسانية ياما شافت منهم واتعذبت باللى زيهم، احنا نور فى دنيا الظلام الموسيقى اللى انت لسه بتعزفيها سواء فى الأوبرا أو غيرها والدروس الفرنساوى للناس علشان يتعلموا لغة ثانية، والفكر الراقى اللى انت مؤمنة بيه لازم ينتصر بس أنا مش عارف أقولك سافرى والا اقعدى، أنا نفسى خلاص قررت أموت فى البلد دى، بحبها وبحب شوارعها وناسها وكل حتة فيها.. سامحينى أنى أخليك تسافرى لوحدك.

وهكذا كان الحوار.. إصرار منه.. رفض.. لابد من المغامرة.. لم يعد لنا مشاعر حقيقية طيبة بيننا وبين الآخرين.

سافرت وأنا أبكى.. وبعض ذكريات «مجدى» فى حضنى.. وقد أغلقت الشقة جيدًا، وعلمت فيما بعد أنها اقتحمت وتم الاستيلاء على كل شىء.

وصلت إلى فرنسا.. ولم يكن أمامى سوى العمل.. بعض الأعمال اليدوية.. وتعذرت الإقامة.. رغم عدم سعادتى بتواجدى فيها.. والكل يطمع فىّ وشعرت أن القاهرة رغم مشاعرها أفضل من باريس.

وهناك فى الوكالة اليهودية، تم تحويلى للسفر إلى إسرائيل البلد الذى تسبب فى كل مشاكلى لصعوبة حصولى على الإقامة.

وكان الجميع يساهم بكثرة عدد المهاجرين إلى إسرائيل – حتى لايجد الفلسطينى مكانًا له.

لم تكن إسرائيل دولة من الشرق، إنها دولة من الغرب تحاول أن تلتمس لها طريقا بين أهل الشرق، عن التاريخ، تبحث عن أى شىء.

هناك فى إسرائيل.. وجدت الكثير من المصريين، الذين رحبوا بى.. وشعرت أننى فى بلد جديد ربما يكون فيه الحياة أبسط وأفضل، ولكننى لم أجد راحتى، فليس هناك اللغة أو العادات أو حتى الفن الذى أحبه.

فلم أكن من اليهود الأشكناز أو اليهود السفرديم.. أنا من الربانيين الذين لا يعترف بهم الحاخامات. ثم إن تاريخى واضح بأننى تزوجت من مصرى مسلم.. وأصبحت منبوذة بينهم.

رغم أننى بارعة فى العزف، إلا أنهم استبعدونى، وحينما أتحدث الفرنسية، لا يتم الرد علىَّ سوى بالعبرية.

وشعرت أن عمرى سينقضى فى عذاب بهذا البلد، فالحرب بين إسرائيل ومصر مستمرة، ويعتبروننى مصرية، وإننى أحب مصر وشعبها، حتى وصل الإحساس أننى جاسوسة.

فى مصر تم استبعادى، وفى إسرائيل لم يرحب بى أحد، ورغم عدم قناعتى بدأت فى القراءة بالعبرية.. وهناك كان مدرس مصرى يتحدث العبرية بطلاقة أخذنى إلى دار الإذاعة الإسرائيلية لأعمل بها. وقد برعت جدًا لأننى أعلم تاريخ الفن المصرى وكل شىء عن مصر، وقدمت البرنامج الغنائى والفنى، ومن حسن حظى أننى أتقنت العبرية بسهولة لبراعتى فيما بينهم بالمصرية المحببة لهم.

وتقدم أحدهم فى الأربعينيات من العمر يكبرنى بأكثر من عشر سنوات ويطلب الزواج منى.. فهو أرمل ويريدنى.

حب «مجدى» قاس علىّ التخلى عنه، عطاؤه.. إحساسى بأول رجل يغزونى، صفاته، لطفه، يديه، قلبه، مشاعره ذكرياتى معه قبل أن يرحل وأثناء مرضه، ورحيله، وجثمانه وكلماته.

حتى إحساس الأمومة داخلى كان معه، كل أحاسيس الأنثى الرائعة معه.

فكرت وحاولت الرفض. فلقد كنت مخلصة لمجدى حتى آخر العمر كما تعهدت، ولكن اغتصابى ترك داخلى أمرًا صعبًا هل أعود مرة ثانية أنثى تشعر وتحب وتعيش الحياة إحساس هذا الاغتصاب وعودتى لحالتى يشدنى لمعاودة المحاولة، وعدم وجود صديق أو قريب أو حتى عمى الحنون لأتنفس الحياة، قررت فى غفلة من الزمن والوحدة أن أتزوج «إيزاك».

تزوجت من «إيزاك».. وحضر أخى الحفل.. ولديه صديقة مصرية يهودية يعيش معها، فلقد أصبحت عائلته وتمنى لى أن تستقر بى الحياة بإسرائيل، فى العالم الجديد.

وهكذا عشت أيامى الأولى مع «إيزاك» المصرى.. لم يكن مصريًا أبدًا.. يكره كل ما يذكره بمصر.. ويعتبر أى هزيمة لمصر انتصارًا لإسرائيل.

احتدت بيننا المناقشات، فلقد كنت أحب كل ما يخص مصر، بل إننى منحازة لكل من هو فلسطينى.. فقد أرضه وبلده وشُرِد وأصبح كلاجئ.

ولكنه غيَّر جلده ولونه.. وغمرنى بالحب.. وطالبنى بالإنجاب، فصدقته وفكرت فى أن أكون أمًّا رغم إحساسى الذى لا يخيب، إنه يضمر لى شرا يوما ما.

هكذا تحولت إلى إسرائيلية وزوجة.. وأخيرًا.. أتحدث بالعبرية، وانقضت كل ذكريات مصر بحلوها ومرها، بل إن الذكريات بعد ما كانت تحمل السعادة إلا أنها حملت الألم لآخر مدى.

مضت سنوات.. أنجبت بنتا وولدا.. وأصبحا يهوديين إسرائيليين وليسا ربانيين وكأننى علىّ أن أسعد بأنهم قبلوا بى كيهودية بينهم.

وحدثت الحرب القاسية بين مصر وإسرائيل وكدت أطير من الفرح وأقول لهم كما يقول المصريون..

المصريين أهمه..

كاد يجن من فرحتى.. وأصبحت غريبة عنه بمشاعرى المتناقضة.

تقربت إليه.. حاولت أن أتفاهم معه..

- شوف إسرائيل دولة محاطة بأعداء.. حتى أينشتاين حكم عليها بالفناء. وأنا وأنت لولا الحروب لكنا فى بلدنا مصر.

رد علىّ بالعبرية وهو ثائر:

- أنا بلدى إسرائيل فخور بها. المصريون هم الذين بدءوا الحرب. هم الذين قتلوا الأبرياء.. وقتلوا أولادنا واستولوا على أموالنا.

- احتددت عليه قائلة: امتى وفين.. المصريون شعب طيب من زمان يكره الحرب.. ولما بيحارب بينصر شعب فلسطين اللى انطرد من بلده.

- لا الفلسطينيون باعوا أرضهم لينا.

- فيه واحد يبيع بيت ولكن مش ممكن يبيع وطن.. يبيع النخل والطريق والنجيل.. حرام عليك.

- رد عليّ بِغل وبمصرية ركيكة: انتى مش يهودية.. إنت مصرية مسلمة أو مسيحية.. أو أى حاجة.. فعلاً ممكن تكونى جاسوسة، فعلا انتى اتجوزت مسلم وعقلك بقى خرابة.. أنا مش مصدق نفسى أنى اتجوزتك.

- لا اتجوزتنى لأنى صغيرة.. اتجوزتنى علشان أخدمك وأخدم عيالك.. اتجوزتنى علشان تذلنى لأنى مصرية ومش إسرائيلية.. وشوف أنا فخورة أنى مصرية فيها إيه أنى يهودية مصرية أو مصرية.

ضربنى بقسوة كل لطمة كنت أتذكر المآسى القديمة.. لطمة أسقطتنى، لم أعد أدرى أو أتصور أن يكره رجل امرأة هى زوجته.

الخوف يتملكنى ورأسى تؤلنى، لم أعد أتذكر شيئًا من كل ما يدور حولى..سوى كمية الألم الجسدى والنفسى الذى يصر زوجى أن أتلقاه.

- يا عدوة.

- نحن دائمًا ننتصر.

- يا عميلة.. عمرك ما كنت يهودية أصيلة.

- أنت قمامة.

- عاهرة.

سب سبابا متتاليا.. ضربات متوالية.. أبنائى يصرخون.

أتذكر «مجدى» وحبه وحضنه وحمايته لى.. أتذكر عمى.. أتذكر أبى وحبه لكل ه . .

لست أدرى لماذا تطل علىّ ذكرى اغتصابى، ذكرى الإهانة، ذكرى تأكيد فصلى عن تراب بلدى وأهلى وحياتى وكيانى.

صور متضاربة متلاحقة مع اللكمات والآلام المبرحة التى تعصر ذاتى.. ودموعى المكتومة المتفجرة فى تأكيد على أننى ذليلة مهزومة.

قال لى كلمته البغيضة:

– احنا دايمًا ننتصر.. وأنا دلوقت انتصرت لإسرائيل.

هكذا يسمى الانتصار..

يا للمهزلة.. يا للخسارة.. يا للهزيمة.

إن هزيمة امرأة على أرض بلدها مصيبة.. وليس هناك أكثر من اغتصابى هزيمة.

إن قهر امرأة وضربها من زوجها.. ضربات مؤلمة قاسية هى أيضًا هزيمة ومذلة وإهانة.

عشت عصر الهزائم ولم أعش سوى فترات قليلة سعيدة مع الموسيقى ومع الحب و «مجدى» وجمال العطاء إلى آخر مدى.

اتهمنى أننى أحب مصر.. وحقق معى وقلت للمحقق وسط كدمات الألم وكسر عظامى ونفسى:

– هل حب مصر جريمة؟!

كلكم تحبون مصر.. إن جذوركم مصرية.. والبشر كلهم واحد.. والفراعنة أجدادى وأجدادك وأجداد البشرية كلها.

إننى فخورة بأننى مصرية.. وسأظل لآخر نفس لدىّ جنسية مصرية.

لم أعبأ لما قاله لى إن مصر مهزومة أو أن مصر استولت على مالى، أو أن مصر متخلفة، أو أن مصر معتدية.

كنت رغم كل جراحى القديمة مصرة على أننى أحب مصر وسأظل أحبها لآخر نفس.

انتهى النقاش بيننا بأنه تم تحويلى إلى المخابرات الإسرائيلية للاستجواب وبعدها طبعًا محادثات الطلاق.

تركت التحقيق وطلقت من زوجى.. واحتمى أولادى بى وعلمتهم مع مرور الزمن أنهم مصريون للأبد.

شعر «إيزاك» بأنى لا أنتمى له ولا لبلده.. وقام بتسليط أبنائه من الزوجة الأولى علىَّ.. وأصبحت حياتى قاسية.. وانفصلت أخيرًا عنه وأقمت فى شقة وحدى ومعى أبنائى.. عملى فى الموسيقى والفن والإذاعة يحمينى من تقلبات الزمان.

كبر أبنائى.. وجاء السلام مع زيارة السادات.. كدت أطير من الفرحة.. سوف أزور بلدى مصر.. سوف يتحقق الأمل وينقشع الظلام ويتبدد الظلم.. وأعود فى أمان لبيتى فى القاهرة.

لم يكن بسهولة السفر خارج إسرائيل.. بعد محادثات السلام أصبح لى أكثر من عشر سنوات بعيدة عن بلدى..

فى رحلة للقاهرة تركت أبنائى.. زرت الحى الرائع الذى تربيت فيه.. الذى كان الجميع متحابين متزاورين فى كرنفال من الألوان الزاهية الباهرة الجميلة..

أصبح كالحاً.. مزدحما.. تغيرت ملامحه.. بيت والدى سكنته أختى.. ثم باعت ما فيه واقتحمه بعض الناس حتى تنازلت عنه لصاحب البيت الكبير.؟. عمى مازال موجودًا.. يدخن بشراهة.. ضعف بصره.. قل سمعه.. مازال يقرأ ويؤمن بحركة التاريخ التى فيها الخلاص..

احتضنته وقال لى بثقة:

– مش هاسيب البلد دى.. دى بلدى وبلد أجدادى وكلنا واحد يا سارة.. كلنا واحد..

اعتقدت أنه يهذى.. ولكنى بمثابة الابنة له..

ذهبت لمحل العطارة.. وجدت ابن أختى فيه..

يلبس الجلباب ويربى ذقنه فى مظهر غريب.. احتضنته.. استقبلنى بفتور..

وقالت أختى لى فيما بعد إنهم يريدون توقيعى على تركى كل هذه العقارات لهم.. فلقد مضت الأيام وزادت الأسعار والأثمان مضاعفة.. مضاعفة.

فجأة تركت القاهرة إلى فرنسا لأعيش هناك ذكرى نفس الطريق لأعود لأسرتى فى إسرائيل.

كبر أبنائى.. والتصقوا بى فترة ثم بوالدهم فترة أخرى وأصبحت وحيدة.. مع ذكر الماضى.. الذى أتمنى أن أعود فيه للقاهرة ولمجدى وأحضانه.

زرت القاهرة أكثر من مرة.. زرت عائلة «مجدى».. مازالت أمه على قيد الحياة تتذكرنى وتحتضننى.

إخوتى البنات تغيرن.. أصبحت حياتهن بزنس.. فلقد تم تحويل العقارات إلى ثروات طائلة وأبناؤهم لديهم توكيلات تجارية.. ويعيشون فى قصور هائلة فى ضواحى القاهرة.

كبرت ووصلت إلى درجة لم أستطع فيها أن أحدد هويتى.. زرت عمى الذى غاب العقل عنه.. ليفارق الحياة فى حضورى لأدفنه فى

مقابر الأسرة مع إخوتى البنات وأولادهم..

قال لى مصطفى وهو ملتح ويلبس الجلباب:

– قبل ما تمشى المرة دى لازم تمضى على البيت ده مش هايخشوا ولادك الإسرائيليين.. كفايه بقى.

نظرت لأختى الصامتة.. الراضية.. القانعة..

– يا بنى هامضى.. بس عمك.. ونظرت لأختى.. كان بيقول دايمًا كلنا واحد.. وإذا كانت الظروف فرقت بيننا فأنا بحب مصر زيك بالضبط وأتمنى ييجوا ولادى لزيارتك وانت ابن خالتهم.. وتكونوا أصدقاء واخوات..

وأمسكت بالورقة أقرأها:

– مين قالك إنى عايزة فلوس.. أنتم أحسن من الفلوس.

أشاح بوجهه بعيدًا.

تملكتنى المرارة وكدت أن أبكى.. فلقد تذكرت كل الآلام مرة واحدة.

ليلة اعتقال عمى.. قضية لافون.. معركة ٥٦.. وفاة أبى.. ليلة وفاة «مجدى» زوجى.. وليلة اغتصابى.. وليلة ضرب زوجى المصرى فى إسرائيل.. والليلة التى أوقع فيها استغنائى عن ممتلكاتى فى بلدى الحبيب مصر..

سافرت وكلى مرارة وشعرت بمرارتها فى حلقى.. لماذا أكون دائمًا هكذا مهزومة؟

هل خلقت سارة للهزيمة.. وهل سأعود مرة ثانية لأهلى وناسى ولبلدى مصر الحبيبة؟

«بريق العيون» قصة بريق العيون سنة ١٩٠٣م

تزوجته وهو ضعف عمرى، والدى أقنعنى وببساطة وافقت. فوالدى هو الحق والحريص على مصلحتى فى بلدتنا الصغيرة التى لا تعرف سوى العدد القليل من الناس.

كان ترتيبى الثالثة من صف طويل من بنات لم نسمع صوت أولاد ولم نعرف من الرجال سوى والدى.

مشكلتى أننى أحببت جارى، فهو الفرصة الوحيدة المتاحة لى يجلس فى الشرفة طوال النهار.. ينظر إلىَّ فى لهفة، وعيناه ترسل الأشعار والمراسيل فى مناجاتى، فوجئت بنفسى أشاركه المناجاة، وعلى نغمة واحدة النظر والابتسام.

تقدم لخطبتى.. وافق والدى.. دخل منزلنا مرات مع النظرات تلامست الأيادى.. شعرت برغبة جارفة داخلى فى أن أحتضنه وأضع رأسى على صدره.

سافر حبيبى للقاهرة.. فانقطعت الاتصالات.. فالقاهرة لها أضواء وأسباب لفسخ علاقة حب بدأت فى قرية وانتهت بدون إبداء الأسباب.

تزوجت معظم أخواتى البنات، وأحضر أفراحهن، ولسان حالى يلوم حبيبى على ابتعاده وانصرافه عن أجمل شىء فى حياتى.

وأخيراً علم أبى بعد بحث دقيق، أنه تزوج من أخرى تملك إمكانيات ممارسة الحياة.

صدمـت.. وذبلـت.. وجاء برجل .. أصبح زوجـى .. علىّ خدمته وطاعتـه وإرضاؤه.. فى شـقته بالقاهرة. لم يقل لى مـرة واحدة أحبك، مارس الحب بشهوة مراهق مسه جنون كلما خففت عن جسدى ملابسى.

تقاسمت الحياة معه ومع أولاده من زوجته المطلقة.. التى أعادها لعصمته بعد ما نال من عمرى عاماً كاملاً شعرت فيه أنه يسحب دمى من عروقى ليسكبه فى بالوعة المخلفات.

وأصبحت لى شقة لأول مرة منفصلة مع خادمة عملها الأول حارسة ومخبرة لسيدها.. متى نمت ومتى نظرت من الشرفة.. وماذا شاهدت من برامج التليفزيون.

أنجبت ولداً.. استبشرت لأول مرة خيراً فهو عوض عن أخواتى البنات.

يأتى زوجى مرات قليلة فى الشهر.. يسهر مع دخان رمادى أعلم أنه يخدره ليثبت لى أنه يعوضنى عن غيابه، بأن يهلك أعماق جسدى، مع أننى لا أستجيب لقسوته، ولا يهمنى إثبات رجولته.. فلقد تلقيت طعنة الرجل الأول فى مقتل ترك شرخا لا يمكن علاجه بأى من الرجال.

أنجبت الطفل الثانى.. وتغيرت أحوال زوجى.. فلقد فرض علىّ غطاء قاتما على كل وجهى.

وأصبحت مسجونة فى شقته، وفراشه، وملابسه وعلمت من الخادمة أنه يفضلنى عن زوجته فأنا صغيرة بضة ملفوفة القوام ورشيقة.. وأنه يريدها دائما أن تعدنى له كعروس فى زيارته الأسبوعية.. فبدأت أشعر باستسلام لرغباته.. فليس هناك من بديل، وجاء الصيف هذا العام.. بمفاجأة.. فزوجى لديه مقاولة كبيرة فى الغردقة.

ليؤثرنى بفضله دعا والدى وأخواتى لزيارتنا فى فيللته بالغردقة.

نظرت للبحر.. وأحببته.. لأنه حر.. يطيح بمن يشاء ويسكن لمن يشاء ويتمنع لمن يشاء.. ليتنى كنت مثله حرة أجوب الشواطئ والبلاد، ويستحم داخلى الرجال والنساء.

أشعر أننى حبيسة ملابسى، لأن هناك رجالا غرباء صحيح هم أزواج أخواتى ولكن لهم الواجهة الخارجية المطلقة على الشاطئ، ونحن علينا الجانب الخلفى الخاص بالمطبخ والأطعمة.

أخواتى البنات ازداد وزنهن، رغم أن والدى نحيف القوام.

ابن أختى الكبيرة يقول لى بصراحة مطلقة.. وهو ينظر لجسدى بإعجاب طفلاً اصبح شاباً دفعة واحدة.

– أنتِ جميلة قوى يا خالتى.

لست أدرى لماذا أعجبتنى كلمات الإطراء.. من ابن أختى وأنا مثل أمه، ولكم هناك من رجال آخرين يقدرون ويعطون درجات للجمال.

وقرر زوجى يوماً أن يأخذنا بجوار أعماله.. فى فندق يعمل توسعات كبيرة.

أخواتى البنات مع أزواجهن تجمعن فى حلقات على الشاطئ.. الرجال بطونهم أكبر من نسائهم.. وكأنهم استبدلوا الأدوار وعليهم أن ينجبوا هم الأطفال.

مرة واحدة يهجم على الشاطئ عدد كبير من السياح.. برر رجلى (زوجها) هذا بأن الشاطئ قد ازدحم مرة واحدة بزوار من شمال أوروبا يرغبون فى تعرض أجسادهم لشمس مصر الدافئة.

فوجئت بالنساء يتجردن من ملابسهن ويختصرن ما يحمى الباقى.. لمعت عيون الرجال.. واحتقنت وجنات النساء.

لاحظت رشاقة ووسامة الرجال.. يلعبون.. ويغطسون وأهم شيء لا ينظرون إلينا.. وكأننا كمّ مهمل!

وبريق عيون رجالنا لاحظتها أخواتى.. فلقد بدت الأجساد دون أخطاء.. وكأنهن شابات.. فلا ترهلات أو انبعاجات.. كلهن جميلات.. الغيرة الحامية أكلت قلوبنا فى لوعة لا نجد تفسيراً لها.

أختى الصغيرة بتشجيع من زوجها.. ذهبت بملابسها كاملة حيث ماء البحر سقطت فيه وكأنها سقطت فى بحر العسل ومعها كافة بنات العائلة يمرحن فى سعادة بالغة.

فى الصباح التالى.. قالت كل النساء إن رجالهن كانوا كالثيران.. وعلقت واحدة قائلة:

– إننى أعطيته كل ما لدى لأثبت له أننى لست أقل من غيرى.

وقالت الأخرى:

لقد أثارته الخليعات.. بعد ما شاهد ما لم يشاهده من قبل.

أما زوجى كعادته يتمتع بذبحى فى عقيدة راسخة داخلة أنه أقوى الرجال..

أصبحت العادة أن نذهب للشاطئ.. ومشكلتى أننى أخفى كافة جسدى ووجهى.. وأتوق لمرة واحدة أن أجرب ملمس الماء.. وأتذوق طعمه مهما بلغت ملوحته.

غاب زوجى فخلعت حذائى.. وذهبت خلف ابنى للشاطئ.. أتشوق للمس الرمال الناعمة.. وغطست قدمى فى مياه البحر.. وأخذت تداعبنى فابتسمت ولم يلحظ ابتسامتى أحد.

جلست وحيدة على المنضدة أنظر لمن حولى.. جاء شباب الجامعة المصريون يحيطون بالمكان المزدحم.. مرة واحدة منهم شاب مليح.. ابتسامته جذبتنى.. ابتسمت له.. وأنا سعيدة إنه لم يلحظ أى شىء، فكل شىء أغطيه حتى عينى التى كحلتها إعجابا بها.

تذكرت حبيبى ونظراته وهيامه ورحيله وغدره.. اعتصرتنى مشاعرى وانقبض قلبى خاصة أن زوجى قد حضر.. وخلفه باقى الرجال.

انهمكت النساء فى توزيع الطعام للسادة الرجال.. أكلوا كالثيران وفردوا أجسادهم كالأفيال ينظرون للنساء المبعثرات حول المكان وعيونهم تبرق بريقاً غريباً.. وأخواتى البنات كعادتهن يتجمعن حول المقاعد.. ولا يجرؤن على فرد أجسادهن.. تغطى رءوسهن الشيلان السوداء، ومنهن من تجرأ على لبس الفاتح من الألوان.

خرجت ابنة أختى من الماء تلتصق بجسدها الثياب وكأنها عارية.. لم يلتفت أحد من أهلها لها.. لأن الشاطئ به الكثير الملفت للأنظار وخاصة مجموعة من النساء الجريئات لا يسترهن شىءٌ.. وبريق عيون الرجال.. قد ازداد لمعانا.. خاصة زوجى الذى يكبرنى بسنوات أخجل من حسابها.

جاء الجرسون بالشاى تعمدت أن أفتح مجالا لشرب الشاى، كلما مر الشاب المليح ذو الابتسامة الجذابة.. الذى تلاحقه ابتسامتى.

نظر لعينى.. واخترقت نظراته الموانع.. ووصل إلى أدق ملامحى.. شفتاى اللتان وضعت فيهما لون الإغراء وعيناى المثيرتان.. لاحظت ولا يخفى على النساء شيئًا.. بريق عينيه.

«يوم فى الجنة» مجموعة قصة الآخر سنة ٢٠٠٦م

فتحت عينى.. ابتسمت.. كعادتى وحيداً.. فراشى دافئ ناعم.. قمت لأغتسل أمامى شلالات رائعة الجمال تحيطها الأشجار فى تناسق كونى، مشكلا بحيرة رائعة تغريك لتشرب منها.

شاهدت الأسماك تتراقص داخلها فى تناغم وانسجام.. قفزت بجسدى العارى كعادتى كل صباح.

أشعر أن جسدى قوى صلب، تضرب يدى فى قوة وفوران الشباب.. أغوص.. أسبح فترة مع الأسماك.

انتهيت من الاغتسال.. خرجت إلى الشاطئ، أنظر للطيور الملونة تصدر موسيقى وألحانا.

أعود وأضرب سطح البحيرة فى سباحة توقيعية.. ضربت الشمس المكان، أعرق بدون حرارة..

تركت الشاطئ إلى مقعد من الخشب، أمامه منضدة بها أطباق الفاكهة الشهية.

أكلت حتى شبعت.. مددت جسدى لأغط فى نوم بلا أحلام.. ضرب وجهى نسيم هواء عليل.. فتحت عينى وقد ملأ صوت غناء أم كلثوم أذناى.. وإذا بها مجسدة أمامى وحولها فرقتها، ولكنهم فى عمر الشباب وبحيوية يقدمون أغنية تليها الأخرى.. أرحت رأسى على وسادة أمامهم.

تغنت عن الحب فدق قلبى شوقا.. انتهت من وصلتها.. صفقت لها.. أحنت رأسها فى كبرياء لى.

تركت القاعة ودخلت لقاعة بها بهو كبير وثرايا ومقاعد وثيرة وفراش كبير بجواره حوض من مرمر صغير به ماء ورد.. وعلى الجانب الآخر مائدة بأرجل قصيرة تشبه الطبلية القروية خلفها مشاعل وفرش بالحرير بألوانه الجذابة.

راقصة من بعيد ترقص، أجد فيها تناغما وانسجاما هائلاً تشبه سامية جمال برقتها ورشاقتها.. تحمى جسدها بثلاث ورقات توت.. تقدمت مسرعا بسرعة البرق.. مازالت ترقص على أنغام فريد الأطرش.

أشعر أن جسدى يغلى فورانا ورغبة وشهوة.. مازالت ترقص فى خجل لذيذ.

شعرت بجوع، فرائحة الطعام تثيرنى.. المائدة فى البهو بها الطعام ساخن دائما.. تقدمت إليه.. مددت يدى أتناول قطع اللحم المشوية.. رائحتها شهية..

طبق الأرز به قطع من السمك المسلوق.. طبقى المفضل.. أنواع من الأسماك بها من التوابل ما يثير الرغبة ويعلن فوران الجسد.. تأكدت من مشاعرى حينما اقتربت الراقصة منى على بعد خطوة واحدة وهى تنظر برهبة لجسدى الرشيق وتقاطيع وجهى، وقوة بدنى.

اكتسى وجهها بحمرة الخجل.. فتساءلت فى نفسى! هل من الممكن أن تخجل راقصة؟!

اقتربت منى وأنا جالس وقد انتهيت من الطعام الشهى وأمسكت بيدها تفاحة واقتربت منى بوجهها الرائع القسمات.. لم أصدق نفسى..

لم تكن سامية جمال بل كل الراقصات اللاتى أحببتهن فى حياتى.. لتهمس لى آخر واحدة منهن بكلمة واحدة متكررة.. عذراء.. عذراء..

ابتسمت لها.. حاولت أستجمع فوران جسدى، فأمسكت بثمرة من التفاح فى يدى.. ولكن الفوران غلى فى عروقى وقد شعرت بظمأ.. وضعت الثمرة على فمى وبقوة يدى اعتصرتها فحولتها إلى عصير.. شربت منه حتى ارتويت.

الراقصة مازالت تمتعنا برقصها.. فى منتصف القاعة مرة سمراء نارية، والأخرى بيضاء شهية.. جميلة.. رائعة بكل صورها.

تقدمت إليها فابتسمت لى.. وجدت نفسى أشاركها برقصات رشيقة سريعة حتى سخن جسدى وتفصد منى العرق.. نظرت إلىَّ بابتسامة مثيرة وأخذتنى من يدى إلى الحوض المرمرى الدائرى الذى تفوح منه رائحة الورد وقفزنا معا بجسدينا داخله.. التصقت بى بجسدها الساخن الناعم.. الرائحة الزكية تنبعث من كل مكان.

شعرت برغبة فى أن أمد يدى فى أنحاء جسدها. وما أن فعلت حتى أغمضت عينيها الرائعتين فى نشوة وإذ بها تبادلنى بيديها لتلمس كل أعضائى فى تأوهات مثيرة.

بعد هذا الحمام المثير تمددنا على جسرين.. هبت نسمة رقيقة أطارت آخر قطرة ماء من على جسدها.. حملتها بين يدى.. خفيفة كأننى أحمل ثمرة شهية.

أرقدتها على الفراش وأسقطت رأسها لأسمع تنهداتها فى موسيقى جذابة..

دققت البصر فى ملامحها.. بيضاء شقراء كمارلين مونرو فى قمة شبابها.. عقدت يدها لتحمى بها جسدها قائلة: عذراء.. عذراء.

ابتسمت لها فى تودد.. وأسقطت شفتى لتعتصر شفتيها.. أتذوق حلاوة مابعدها حـلاوة.. مضى الزمن فى قبلات متبادلة فى كل أنحاء جسدها.

لم أشبع منها حتى حل المساء.. وقفز القمر فى بطن السماء.. خمدت قوتى وهى نائمة على صدرى الفولاذى.. ورغم ذلك اعتصرتها بيدى القويتين.. فغاصت بسعادة داخله وهى تتمتم بصوت الرضا.. فغفوت فى نوم هادئ.

فتحت عينى.. مازال القمر فى السماء.. وموسيقى حالمة لبيتهوفن تدعو للمتعة والجمال.. ومازالت الطبيعة حولى رائعة.

نسمة هواء عليلة تأتى من بعيد.. قمت إلى الحديقة وجدت لى اختيارين إما أن أمتطى الفرس ذا الأجنحة.. أم بساط الريح.

امتطيت الفرس وربـت على عنقه فابتسم لى وكـادت تحدثنى عيناه برضا.

يطير بى وأنا ممسك بعنقه.. تذكرت دقات قلبى وطيف محبب إلى قلبى.. وإذا بفتاة شابة تشبه بالضبط زوجتى.. انطلقت بالفرس إليها حتى وصلنا إلى الحديقة التى بها العديد من البنات الصغيرات يرقصن وترقص معهن فى ملابس بيضاء.. الوحيدة التى ترتدى ملابس بيضاء تشبه ملابس الزفاف.

هبط الفرس الأبيض بجوار الحديقة.. نظرت إلىّ وقد تركت الفتيات

الراقصات حولها.. ركضت حتى وصلت إلىَّ.. مددت يدى القويتين لأسحبها كى تقفز على الفرس..

أطاعتنى وكأننى حققت رغبتها.. أحتضنتها بساعدى.. ليقفز الفرس إلى السماء.. القمر يضيء المكان.. يطير بى إلى القمر وضحكات الفتاة خلفى سعيدة يتردد صداها فى موسيقى حالمة.

الفرس يقترب من القمر الذى يشع ضوءه بإشعاعات فضية لامعة.. تهبط على سطح القمر يبدو كقطعة من الجنة بيضاء.. نتبادل الكلمات والقبلات.. ما أحلى الحب.. حب تتلامس فيه الأيادى ثم الأجساد.

تقول لى: أحبك، أكثر من مرة، وكل مرة بصوت ملائكى رائع.. أغفو وأنام على صدرها كالطفل.. أستيقظ على صوتها تقول لى: مازلت أحبك الحب على سطح القمر رائع..

يرتاح جسدى.. ومازال الفرس يدور حول الخيمة.. أقفز عليه وهى تحتضننى لتغيب فى رحلة العودة.

* * *

نصاب..نصاب؟!

همس فى أذنى بكلمات قد تمنيت أن أسمعها عمرى كله، ونظر إلىَّ بنظرات خلعت عنى كل حياء، وأصبحت أتمنى أن يأخذنى بين يديه، يعتصر جسدى ليجبر عمرى على التراجع، ويعيش قلبى دقات المراهقة العذراء التى تنتظر فى لهفة نظرة العشاق، لتختار منهم الجديد بكل خلية فى جسدها ودم فى عروقها.

أيقظ فى جسدى الأمل، فتحركت فى أنحاء شقتى على عجل، أتخيل خيالات عمرى كله..

فى هذا المكان سنشرب الشاى معاً، وفى هذه الغرفة سنتطارح الغرام.. وفى هذا الفراش سنعيش حياة العشاق.

حياتى كلها حرمان.. منذ أن وطئت قدمى الكلية العملية.. وغرف المعامل تؤكد تفوقى.. وتقدمى حتى على زملائى الطلاب.. تقدم لى أستاذى المتفوق دائماً.. روى عليه، أنه أكبر منى ومتأنق أكثر من اللازم.

أختى الأصغر تنتظر خطبتى لتسعد بعمرها، رفضت ورفضت حتى تزوجت كل من هن أصغر منى فى العائلة الكبيرة.

حتى أصبحت نظرات الرجال لى تؤكد جديتى وتنكر جاذبيتى، وكأنها تهمس فى أذنى أننى لن أعيش الحب أبداً فكلهم أصبحوا يلقبوننى بالأستاذة.. المعيدة،.. الدكتورة.. الباحثة.. ولم يعد هناك من يعاملنى على أنى أنثى.

نظرات أبى تخيفنى.. أبتعد عنها كأنها سهام نارية تريد أن تحرقنى.

وأمى تدعو لى.. وكأن الرجل.. هو الجنة.. والزواج هو الفردوس.. وزاد الأمر بحضور إخوتى كلهم.. ومعهم أطفالهم للغداء كل جمعة من كل أسبوع.

أبتسم للجميع، وكأننى أؤكد لهم أننى راسخة صلبة.. لن يهزنى شىء من نظرات وكلام الناس، مع أن الليل الطويل.. وثوانى الجمرات يؤكدان عكس ذلك بكثير..

وصل بى الشوق.. أن أجرب رجلا.. حتى ولو يوم واحد، تلفحنى أنفاسه وأشعر بلمساته، وتعتصرنى أحضانه..

فى ليالى الشتاء.. يدفئنى.. وفى حرارة الصيف ينطلق معى كالمجنون، أريد أن أكون يوما واحدا مجنونة.. ويروى شجرة عمرى.. وتزدهر أزهار حياتى.

حتى جاء «نادر مختار».. نعم اسمه نادر.. وهو شخصيته نادرة.. مختار لأن من فى عمرى لا تستطيع أن تختار سواه..

ابتسامته العذبة.. جعلتنى أثق به.. صوته الرقيق الموسيقى.. يطرب له قلبى.. نظراته الحنون تجعلنى أثق به حتى لو كان فى حجرة فى قاع الأرض أو طائرة فى غياهب السماء.

كان رغم سنوات عمره رشيق القوام.. وبعض الخصلات الرمادية تعلن عن وقار تحتاجه أى امرأة لرجل يملك الكمال فى كل شىء.

كسب المعركة التى فشل فيها كل الرجال قبله.

لقد استطاع أن ينال دقات قلبى.. وتبرق عيناى فى سعادة طفل. تنجو نفسى من حصار العزلة وسجن العنوسة القاتل.

الكل هنأنى على عريسى وخطبتى وزغرودة تمنيتها منذ أن كنت ألهو بأرجوحة الطفولة.. وبدأ فستان الفرح الأبيض يتلألأ فى بريق شديد.. وتاج الفرح يداعب رأسى ليطرد كل قوانين الطبيعة والكيمياء والفيزياء. ولن أعرف سوى عزف آلات الكمان.. والرق والدفوف.. وأسمع زغاريد تطرب لها أذنى، ويدق لها عمرى المنقضى.. ويخرج لسانى للهزائم والنكد وليالى البكاء الصامتة.

وحددنا موعدا لعقد القران.. ولى قريب يدس أنفه فى كل شىء جديد بحكم صلاته وعمله يستطيع أن يعرف خبايا كل مستور.. ويصل للمعلومة ببساطة.. فى عصر الكمبيوتر.. والعلم والتكنولوجيا التى درستها ودرَّستها لغيرى وإيمانى بها هو المطلق بعينه.

وقبل الموعد المختار بينى وبين نادر على العقد الأبدى.. والذى اتفقنا فيه أن تكون الحياة فى شقتى.. وسيارتى هى سيارته.. وعمرى مرتبط بعمره ودقات قلبى تنبض مع دقات قلبه.. أعلن قريب لنا الخبر الصاعقة وهو.. يزهو بقدرته على كشف المستور من الأمور.. وقد كشف فى صفعة أطاحت بأحلام العمر والأمل. ورغم هذا انتزع الابتسامة رغم عنى.. واستطعت ترويض دموعى داخل مقلتى. قررت الارتباط به لأنه حقق خيالى.. ويكفينى أننى أتحدث فيستمع لى فى وقت لم يعد يسمعنى فيه أحد، فهو النادر المختار حتى لو كان.. نصاب.. نصاب.

الميكروباص

اغتصبت نعم.. مِنْ مَنْ؟

لا أعرف.. صدقونى.. لا أعرف!

أتذكر.. وقتها كنت فتاة عادية جدا.. تطور جسدى وتحولت أجزاء منه لمنحنيات.. آلام تزورنى كل شهر تحمل معها تساؤلات؟!! أصبحت أرى فى عيون الرجال نظرات.. تجبرنى على إخفاء نهدىّ وكأنى أحمل شهوات علىّ إخفاؤها.. دون إبداء الأسباب.

جاء اليوم الصعب.. كان يوما شتويا.. وظلام الليل قد بدأ يخيم على المكان، وفوجئت بسيارة ميكروباص يقفز منها رجال.. وكأنهم سيمسكون مطاردا.. فزعت ومن هول المفاجأة توقفت مكانى لأجدنى أرفع من على الأرض.. وتكتم أنفاسى بيد قذرة مغموسة بزيت وشحم.. ولم تمر ثوان إلا وكنت ممددة فى السيارة بعدما رفعت مقاعدها.. من شدة الرعب والخوف أصبحت لا أدرى بما يحدث حولى.. كنت أستمع لكلماتهم المقززة وأشعر بأياديهم تعبث باستهتار فى جسدى.. ولا أستطيع المقاومة.. كدت أختنق وحاولت جاهدة أن أحافظ على أنفاسى حتى لا تضيع وأموت بين أياديهم.

فوجئت برجل ضخم الجثة يتقدم منى ويمسك يدى بيد واحدة، وبالأخرى يعبث بصدرى، والآخر يرفع قدمى..

صوت الألم داخلى يعلن تحولى إلى عالم آخر.. ملىء بالذل والقسوة والمهانة.

أردت أن أصرخ لاغتيال جسدى ومستقبلى وأحلامى.. لم أستطع فقد شددت اليد القذرة ضغطها علىّ.. وحاولت ثانية المحافظة على ما تبقى من أنفاسى. أردت أن أبكى.. تحجرت دموعى رعبا.. وقتل بداخلى إحساسى.. شعرت أننى وصلت لحافة الموت.. فلقد صمتت دقات قلبى.. ونزفت جراح نفسى ومات صراخى، الثوانى الباقية من عمرى أقضيها فى عذاب مهين. شفاه عفنة مقززة تمزق شفتى بلا هوادة ولا رحمة.. رائحة كريهة من حولى تمنع الهواء عنى ولم أعد أستطيع التنفس.. رحت فى إغماءة.. لم أعد أشعر إلا بسكين حاد يدخل أعماقى فيمزقنى.. ويؤكد لى أننى مازلت قيد الحياة.

أتذكر.. هؤلاء الرجال وهم يتدافعون نحوى.. فالكل له دوره الذى يتصارع من أجله.. تأكدت حينها أننى سأخوض تجارب الموت مرات ومرات برغم علمى أن الموت لا يأتى سوى مرة واحدة.

استسلمت يأسا وقهرا ورعبا.. فالسلاح الأبيض قد بدأ أحدهم يلوح لى به كلما هممت بالصراخ.

تحركت السيارة.. ونحن فيها.. الكل قام بدوره كما ينبغى.. الكل نهش من الفريسة ما أشبع جوعه وروى ظمأه وغبت تماما عن الوعى.

أفقت على أصوات تتحدث وأيادٍ تحملنى وتلقينى على حافة الطريق.. وتبعد السيارة مسرعة.. أصوات السيارات وأبواقها تطن فى أذنى فى محاولة لإفاقتى.. ولا أستطيع أن أقاوم الألم.. أشعر بسائل ساخن يندفع ويغطى جزئى الأسفل.. أتحسس رجلى فى محاولة للوقوف.. فأجد يداى وقد خضبت بالدماء الغزيرة المندفعة.. أخذت

أتحامل على نفسى حتى أستطيع أن أستنجد بأى شخص لينقذ ما تبقى من آنات فى عمرى.. لملمت شتاتى واستطعت.

أخيرا سمعت صوتا.. كلمات مطمئنة تهدئ من روعى وتحاول تهدئتى. الماء يغسلنى.. وصوت يسألنى.. أرد بتثاقل وأخبره عن اسمى، ورقم تليفون المنزل.

غبت عن الوعى.. ولم أفق إلا وأبى بجوار فراشى.. يحتضننى ويبكى ويلملم شعرى.. ألمنى بكاء أبى.. فهذه هى المرة الأولى التى أراه فيها يبكى وأرى انكساره، أما أمى فلم تكن بجوارى.. علمت فيما بعد أنها أصيبت بانهيار عصبى ونفسى وأنها راقدة فى الغرفة المجاورة.. لم تطاوعها نفسها أن تنظر إلىّ وأنا فى هذه الحالة.. آثرت البعد والصمت.. فلم تجد ما يقال.

أشاهد الجميع خيالات وصورا مهزوزة.. أشعر بسن حقنة تغرس فىّ.. أغيب فى أحلام مفزعة.. أصرخ خلالها من الألم.

بدأت أشرب الحساء.. وأتناول بعض الأطعمة وعيناى نصف مغمضة.. أخوتى نظراتهن المرعوبة تقتلنى.. وأول كلمة قلتها: ماما.. فين ماما.. أنا عوزاها.

أخيرا أتت إلىّ تصطنع الابتسامة.. احتضنتها ونمت على صدرها.. وصوت دموعها وتمزقها لا يفارق أذنى حتى اليوم وأشعر بالمرارة.

جاء رجل الشرطة يسأل والدى عما حدث.. فما كان منه إلا أن قال له بصراحة وصرامة واضحة:

– أرجوك مش عايز فضيحة.. مش هاقدم بلاغ.. ومابتهمش حد.. مافيش حاجة حصلت.

– يا أستاذ لازم نقبض عليهم.

– لمصلحة بنتى لازم أتستر على اللى حصل.. لازم ينتهى الموضوع ده بسرعة.. كفاها اللى عانته.

وهكذا ضاع حقى وحق كثيرات غيرى. أى فضيحة هذه التى تمنع أن يأخذ القانون مجراه، وأن يعاقب الجناة؟.. مِنْ مَنْ آخذ حقى؟.. فى أى مجتمع نحن؟.. وما هذه الشكليات التى تضيع حقوق البشر؟

وجدتنى أتحدث وأحادث نفسى دون جدوى.. فصمت وأغلقت داخلى على أحزانى وهمومى وآلامى.. فما دام هذا رأى أبى فهو الصواب.

وبمرور الزمن ونظرات الناس تحولت من ضحية إلى مذنبة.. أبتعد وأمنع نفسى من الخوض فى أى شىء فى الحياة.. حتى بعد انتقالنا لمسكن آخر لا نختلط فيه بأحد، ولكن ما زاد الطين بلة هو تأكدى أننى حتى لو واريت ما حدث من مصيبة وفضيحة فلن أستطيع مستقبلا الحمل ولا الإنجاب، فما أصبت به جراء ما حدث أصابنى بتهتك لم تنفع معه الجراحة ولا العلاج.

ووسط هذا الخضم البشع من الأحداث حصلت على شهادتى الجامعية وبصعوبة وتقدم لى رجل واحد.. عريس.. علمت أنه قد سبق له الزواج.. ولم يستمر لعدم قدرته على الإنجاب.. لم نخدعه بقصتى.. فلقد تم شرح الأمر برمته له.

وهكذا فلقد قتلت بدل المرة مرات.. فيكفى أننى ارتبطت برجل لم يكن فى يوم من الأيام فارسى، ويكفينى أكثر وأكثر أننى سأحرم من الحلم الذى يراود كل فتاة منذ صغرها.. حلم الأمومة.. وما أعظمه من حلم.

* * *

بنج.. بونج

لكل إنسان قدره.. «ليلى عبد الحميد».. قدرى.. دون أن أدرى.

جارتى.. قريبتى.. والدها شريك والدى فى منزل ورثاه عن والديهما منذ سنوات طويلة.

والدى ضابط صارم.. تزوج من ابنة عمه على شاكلته.. كل شىء منضبط فى نظام دقيق.. من طعام وصلاة ونوم.

فى حينا الهادئ.. ناد.. تنزل هى وأخوها ليلعبا به هناك.. مع أبناء النادى.. تلعب كل الألعاب حتى كرة القدم. وأنا حبيس ملابسى النظيفة.

أتجول فى النادى.. أنظر إليها.. متفوقة.. رشيقة.. جميلة.. ورغم أعمارنا الصغيرة.. فإننى احترت فى تفسير اهتمامى بها.

دعانى أخوها.. لنلعب معا.. واخترت تنس الطاولة لأنها ستحافظ على نظافة ملابسى.. فالخصم بعيد وهو يلاعبنى.

تعلمت قواعد اللعبة.. وجاءت ليلى.. ورغم عمرى الصغير.. دق قلبى.. ابتسمت تشجعنى.. حاولت.. ولم أكن فى براعتها.. استسلمت للهزيمة.

غادرت المكان إلى حجرتى.. أفكر كيف أرد اعتبارى.. أمام أمر غير مقبول.. بنت تهزم ولدا.

* * *

أنزل للنادى فى كل الأوقات لا ألعب سوى لعبة البنج بونج.. وبالممارسة وصلت لدرجة عالية أهلتنى لأهزم غيرى.

انتهزت فرصة وجودها فى قاعة اللعب، وطلبت منها أن تلاعبنى.. لتفاجأ بمستواى وأهزمها.

- ابتسمت مهنئة:
- برافو.. مستواك اتحسن.. وغلبتنى.
- قلت وقد مسحت عارى:
- أنا غلبتك لأن الولد لازم يغلب البنت.
- هزت رأسها ردت ببساطة:
- ما تشغلش بالك.

* * *

والدتها طبيبة.. تأتى لمنزلنا.. حين تمرض أمى.. ترفض أن تأخذ أى أتعاب منا.. أنظر إليها وأقارنها بأمى.. وأكتم داخلى مشاعر عديدة.

مصيفنا فى رأس البر فى عشش متجاورة.

تنزل البحر لا تهاب الأمواج.. جريئة بدرجة يصعب وصفها.. تجلس على الشاطئ تقرأ كل شىء.

أحتار فى مشاعرى التى كبرت معى.. ولم أعد أفهم سر عقدتى منها. مضى الزمان لتدخل كلية الآداب.

* * *

دخلت الجامعة.. تمارس كافة الأنشطة الممكنة.. لتصبح فتاة الجامعة المثالية.. وتصدر مجلة الحائط رغم صغر عمرها.. وأتذكر يوما أنهم حققوا

معها لجرأتها فى النقد الذى فاق الحدود.. وكنت أتساءل.. لماذا تقحم نفسها.. فى مجتمع شرقى يؤكد لها أنه مجتمع الذكورة المطلقة؟

* * *

تخرجت فى كلية التجارة.. وعملت فى وظيفة روتينية.

هى لا تهدأ.. التحقت بالعمل فى جريدة.. تعمدت شراءها.. فوجئت بجراءة قلمها.. وشجاعتها.. وشعرت بمشاعر.. يصعب على تفسيرها..

دق قلبى بعنف.. فى مكان على النيل.. كنت أسير وحيدا.. وجدتها تجلس مع أحد الشباب يتجاذبان أطراف الحديث فى ود ظاهر.. تعمدت أن تشاهدنى.

ابتسمت لى.. وأشارت إلى تقدمت منها لأصافحها وأصافحه.

الدكتور.. جارى.

صافحتهما.. وداخلى مرارة.. كيف تجرؤ أن تجعلنى أصافحه؟.

لم تدم حيرتى كثيرا، فلقد سمعنا أصوات أفراح فى بيتنا.. خطبة ليلى لهذا الطبيب.

وبدأ والدانا يجهزان لبناء دورين إضافيين لسكن العريس والعروس وما يستجد من العرسان.

* * *

ما زالت ذكرى البنج بونج داخلى.. تقدمت بسرعة لقريبة لى تعمدت أن تظهر فى مظهر الخجول.. المطيعة.. تزوجتها فأحبتنى.. وقدرى أن يكون سكنى أمام شقتها.

يخرجان معا.. تحتضن ذراعه بيديها الرقيقتين.. لا تخجل من

إظهار حبها له.. وبمرور الزمان.. أصبحت أجمل امرأة فى المكان.. حتى بعد إنجاب ابنها وابنتها.. رشيقة.. قوية.. جريئة.. واثقة.

تصادف أن نذهب للمصيف فى نفس الوقت.. مازالت تلعب (الراكيت) على الشاطئ مع زوجها وابنها.

وفى المساء تداعبها النسمات الرقيقة فتطير خصلات شعرها على جبينها العالى.. لتداعب عينيها الواسعتين اللماحتين الذكيتين.. فلا تلملم الخصلات لأن أصابعها مشغولة، فهى متشابكة فى أصابع زوجها.. لا أعرف من أين تأتى بهذه الحكايات..!

أنظر إلى زوجتى التى تغطى شعرها وتجلس على مقعدها.. تتسلى بقزقزة اللب دون حوار.. ولا تعرف ما يدور فى قلبى وعقلى.. فهى تحبنى ولا تغضبنى.. وتهمها سعادتى.

فأغمض عينى ليصطدما بهواء البحر فى تساؤل:

هل أنا حقيقة سعيد؟!

ابنى يلعب مع ابنيها.. تركته يلعب كل الألعاب.. وشجعته ليلى على الانضمام لفريقها.. وعند الانتصار تهديه حلوى لتشجعه.. أصبح متعلقا بها.. لاحظت لأول مرة غيرة زوجتى منها.

وبانتهاء المصيف تعمدت فى المواسم التالية أن أذهب فى وقت لا يكونون فيه هناك.. فلقد انهزمت زوجتى فى لعبة البنج بونج.. دون أن تلمس الكرة مضربها.

فابنى المتفوق فى كل شىء أحب «ليلى» فى كل شىء.

أيقنت أن قدرى.. لى بالمرصاد.. ابنى يدخل كلية الطب.. صديق لزوجها.. وغاب عنى أن ابنتها التى تشبهها تدخل كلية الطب زميلة

لابنى الذى يتخرج بتفوق ويصبح معيدا بالكلية، تأتى إلينا تطلب مساعدته فى بعض الدروس.

نظرات زوجتى إليها تؤكد أنها لا تحب هذه الجرأة.. وهذا الوجه المكشوف.

قلبى يتمزق.. ابنى المتفوق.. يسألنى أن أتقدم لأزوجه ابنتها.. تساءلت فى غم:

لماذا هى؟

بحبها

زوجتى الهادئة.. بكت فى صراخ رافضة.. تقبل رفضنا فى هدوء تام وثقة.. وكأنه يقرأ ما نحن فيه.. ومشاعرنا تريد أن تفضحنا وتعرى عجزنا.. ثقته فى نفسه تقتلنى اكتسبها منها.. وبنتها السافرة مثلها سلبت عقله وقلبه وأملنا.. عجزت حجتنا أمام محبته ورغبته.

الفرح كبير.. معارفهم يفوقون معارفنا.. كبار ومفكرو ومثقفو وأطباء البلد.. مدعوون.

ورقص ابنى مع ابنتهم الجريئة.. ولم يرحمنا.. وأعلن على العلن غرامه بها.. وقبلها.. وقبلته أمام عيوننا.. وأمسك أناملها فى يده ولثمها أمام الجميع

مضى شهر العسل.. بحمل.. أعقبه إنجاب ورضيع صغير.

فى زيارتنا لهما.. كانت زوجته بالمطبخ وهو يغير ملابس الرضيع المبللة.. بكت زوجتى حسرة.. وفى داخلى أمان لا أعرف مصدره.

* * *

أخيرا سقطت «ليلى».. أصابها المرض.. خمدت حيويتها.. ونقلت للمستشفى.

مازالت تهزمنى بمشاعرها النبيلة.. تبتسم فى وجهى ويدها متشابكة فى يد زوجها الذى يغالب دموعه.. قائلة:

- تعبتم نفسكم ليه.. كلها كام يوم وأخرج من المستشفى ونلعب مع حفيدنا.

تركت الغرفة.. واحترت فى تفسير بكاء زوجتى.. وقد اختزنت داخلى صراخى ودموعى.

لتنفجر.. بعدما أغلقت على باب حجرتى.. وتأكدت أن «ليلى عبد الحميد» هزمتنى فى كل الألعاب حتى البنج البونج.

* * *

الغـولة

القبح كالجمال لا ينكره إنسان.. فإحسان وهذا اسمها كان قدرها يتمها فأصبحت الخادمة منذ نعومة عمرها.

وهى تدرك ذلك.. فلا تنظر لمرآة.. أفضل دور تؤديه فى لعبها مع السادة الأطفال دور الغولة.. التى ينهالون عليها ضربا فى أثناء اللعب.. وعليها أن تتحمل وإن توجعت وبكت فهذا أمر لا يستحق الاهتمام.. فبكاؤها الصامت سيسكت بعد حين.. حينما تطلب منها سيدتها أمرا.

تعودت على الضرب والإهانة. ولم تعد تبالى بأى شىء.. فبعد كلام الإهانة ستهجم عليها سيدتها لتضربها.. فتتكور حول نفسها لتحمى جسدها الصغير من الضربات المتوالية.. وتبدأ موسيقى الصراخ والبكاء.. فتنتشر فى أرجاء البيت.

وحينما كبرت وأصبح لجسدها تكوين وتدوير.. ضحكت ربة البيت من المقلب الكبير الذى ناله زوجها.. فالخادمة مسخ مخيف.. ولن ينال منه شىء.. فماذا يأخذ الريح من البلاط؟

فالرجل لا يمكن أن يتناول أى طعام من يديها.. أو يلبس ثوبا لمسته.. وحينما تنام فى المطبخ الضيق.. لا يطيق أن يتنفس نفس الهواء حتى فى أعز أيام الحر.. فأحضر ثلاجة صغيرة فى حجرة نومه ليستغنى عن المطبخ وجماله.

الأطفال الأشقياء.. لعبوا معها لعبة.. لابد أن تخلع فيها ملابسها وبدأ أخوهم الكبير أمامهم.. يلعب لعبة (الغول والشاطر حسن).. وكيف قتل الشاطر حسن الغول.. وشعرت «إحسان» بإحساس غريب.

استسلمت له.. فقدرها المكتوب الاستسلام.

وحينما يبدأ اللعب تتكوم.. ويقوم الصبى بممارسة الهجوم على الغولة التى تتحول إلى التكور.. فيصيبه الهياج.. وينال منها دونا عنها.. ودون أن يلاحظ أحد الأطفال دوره المريب.

ماعدا أمه التى اكتشفت أنه يلعب مع إخوته الصغار وأصدقائهم.. مع أنه يحب لعب الكورة فى النادى. ولماذا يهاجم الغولة المهولة.

افتضح أمر ابنها حينما احتقن وجهه.. وأدركت أمه بخبرتها أنه يعانى معاناة الرجال.. وأنه يلعب لعبة الرجال فى ملابس الصبيان.

ومضى الزمان.. ولاحظت نفس القصة تتكرر مع باقى إخوته.. ومع الفارق الوحيد أن إحسان أصبح لديها إحساس تتذوق به متعة التكور ولعبة الغولة.

وجاء اليوم ولم يستطع ابنها أن يملك نفسه وهياجه.. قام إلى المطبخ ورفسها استكانت.. خلع ثيابها واكتشف جسدها.. واكتشفها.. وحينما فرغ بصق على نفسه وعليها.. ولعن الشيطان والشهوة.. وغسل نفسه كأنه يغسل عاره.. وأدركت أمه ثانى يوم من مشهد «إحسان» أنها تعانى أمرا من الأمور.

ولم تنتظر الأم الكثير.. فلقد علمتها أن عليها التطهير حتى لا يحدث المكروه وكأن عملها السكوت والمثول لأوامر السادة الصغار.. أليس هذا الحق من زمان مضى فالجوارى بكل العصور.

فى منتصف الليل.. تقوم «إحسان».. فى تباطؤ تام إلى الحمام.. تأخذ حقها الأكيد فى الاغتسال بالماء الساخن أو الدش. لأن هذا مباح من سيدتها.. فعليها إطاعة أوامرها كلها.

ومن حسن حظها لم يحدث المكروه أبدا، وكأن القباحة طالت كل أجزاء جسدها.. فلم يعد هناك خوف من حمل أو فضيحة.. ولولا الاحتراس لمنعتها من استخدام الحمام.

والمصيبة أنها استساغت واستباحت لنفسها أجزاء من ماكياج سيدتها.. فى انتظار من عليه الدور.. وأحيانا يكون اثنان أو صديق يأتى للبيات بحجة مذاكرة آخر العام.

وانتشر بين الأصدقاء أن «إحسان» الغولة تستسلم للجميع فى هدوء أفضل من عادات سيئة يمارسها الشباب.

وجاء الوقت ليتزوج الأول.. ويتلوه الثانى.. وهى كما هى متبلدة منتظرة أى دور تطالب بأدائه فى استسلام تام.

وبمضى الزمان كبرت سيدتها.. وجاءت سيدات كثيرات وأنجب السادة أطفال.. وكان هناك من يمارس منهم حقه فى اللعب مع اغتيال الغولة.

* * *

شيكولاتة

لست أدرى ولا أستطيع أن أصف ما حدث لى. أهو اغتصاب.. أم متعة.. أم جهل لدرجة السذاجة المدفونة فى نفس طفلة صغيرة.

تعلمت منذ الصغر احترام رأى الأكبر منى.. وإطاعة أوامر كل الرجال لأنهم فقط رجال.. يملكون كل شىء ومفضلون على النساء.

أبسط الأمثلة على ذلك ما حدث فى منزلنا.. فوالدى يأمر فى كل شىء وتطيعه أمى طاعة عمياء فى خنوع تام.. لا تناقشه وكذلك أخواتى البنات.

حتى أخى يأمرنا جميعا بما فينا أختى الأكبر منه تعد له الطعام أو الحمام أو الفراش. فأنا اعيش حقا منذ نعومة أظفارى عصر السادة الرجال.

أحيانا يمدنى أبى بقبلة سريعة على خدى.. وأحيانا أخرى تعطينى أمى كوب شاى نظيفا أحمله بيد مرتعشة لأوصله إليه فينظر لى نظرة كلها سعادة.. فقد تم إعدادى لأكون زوجة وخادمة فى المستقبل.

أخى الأكبر يعمل مع والدى فى الورشة. والآخر مجند فى الجيش والذى كان يكبرنى مباشرة يلعب ويذاكر.. والكل فى خدمته.. حينما يأتى صديق أو قريب ليذاكر معه نغلق الحجرة وتجاب كل مطالبهما.

قريبنا.. لا أستطيع البوح باسمه.. يأتى بابتسامة يوزعها على الجميع.. عيناه جذابتان فى لون العسل.. وشعره كتلة واحدة يحركها فى ثقة ودلال ويقولون له «أبو قصة» مدحا وليس ذما.

يعطينى مرة قطعة شيكولاتة وأخرى بونبون.. أسعد بهما فأنا بعد لم أتعد العاشرة.. أجلسنى على رجليه.. استسلمت له فى صمت.. فلم يكن فى الحجرة سوانا.. فأخى كان قد خرج لتوه وقالوا له «اتفضل هاييجى بعد شوية».

فى أثناء ذوبان قطعة الشيكولاتة فى فمى.. عبثت يداه بأنحاء جسدى.. كنت أشعر بمتعة لا أعرف مصدرها.. أهى متعة الشيكولاتة أم متعة يديه؟! زادت حدة الصمت.. لا أعرف لماذا؟! أكيد كنت خائفة أن أرده.. خاضعة لمن هو أكبر منى عمرا لأنى تعلمت طاعة الجميع واحترامهم وخاصة الرجال منهم.

فوجئت به يتحسس أماكن أكثر عمقا.. أشعر فى هذا العبث بالفارق بين الولد والبنت.. سكت وازداد صمتى أكثر وأكثر.. فإذا به ينحنى على صدرى ليمتص رحيق ذاتى.. ليدخلنى فى عذاب لا أعرف له معنى.

لا أستطيع الصراخ.. أو الهروب أو حتى البكاء.. سكت وأنا أعلم أن ما يحدث به كثير من الخطأ الذى لا أدركه.. ولكننى استشعرت الخطر من نظراته لى وقلقه من أن يرانا أحد.. حتى الشيكولاتة صمت طعمها فى فمى.. فلم أعد أشعر به.

سمعنا صوتا يأتى من الخارج.. فدفعنى وأنزلنى فى فزع أدركت حينها أننى أفعل الخطأ فعلا.. لملمت نفسى وخرجت مسرعة من الحجرة.. وابتسامته تودعنى.

حاولت أن أفهم معنى كل هذا.. أنظر إلى أمى وأشعر أن بصدرها كل

الحنان فالتصقت بها وقبلتها.. لولا ارتعاشى وخوفى كدت أعترف لها بما هو غير مباح فيه الكلام.

منذ ذلك الحين علمت معنى السهاد والأرق.. فقد جاءنا بعد أسبوع وسمعت صوته بالخارج وببجاحة شديدة أرسل لى مع أخى قطعة شيكولاته كبيرة.

بعدها بأيام وفى تعمد أتى وأخى غير موجود.. أحضرت لى أمى كوب شاى وأمرتنى أن أدخله له.

دخلت الحجرة.. ابتسامته استقبلتنى مرحبة.. الشيكولاتة فى يده لإغرائى.. وضعت كوب الشاى ولم أنبس بكلمة واحدة.. رفعنى وأجلسنى فى نفس المكان.. وأيضا صمت وسكوت تام.. جراءته أخافتنى.. كدت أموت من الخوف.. ارتعشت.. الغموض يقتلنى ولا أجد تفسيرا لما يحدث ولماذا يفعل بى ذلك ولم؟!

طال الزمن.. وشعرت بأشياء جديدة.. تحاصرنى.. وأننى أريد أن أتقيأ من الرعب والخوف.

تركنى برغبته لأذهب لحجرتى وأنـام.. لم أستطع أن أنام فقد تذكرت شفتيه وهما تعبثان فى جسدى.. فهذا شىء جديد على.. فأنا لم أتذوق سوى قبلات أبى وأمى وإخوتى التى تختلف عن هذه.. إنه شىء لا أفهمه ولا أستطيع تفسيره.

تحاشيت أن أقابله.. ومضى الزمن وبدأت أشعر بأنوثتى تتدفق.. فكثيرا ما أنظر فى المرآة وأصفف شعرى وأنزل الثوب على كتفى.. وبين الحين والحين كنت أتذكره وأتشوق لشفتيه وأشعر بهما وهما يجوبان

أنحاء جسدى الصغير.. اشتقت لهذه اللعبة وتمنيت أن يعاد تكرارها.. حتى جاء ذات مرة بابتسامته الجذابة التى شدتنى وفى أثناء جلوسه مع أخى تذكر أمرا وتركنا سويا ليلبيه.

تكرر نفس الموقف وكان على أن أقدم الشاى.. وحينما تغيبت اعتقدت أمى أننى ألعب مع بنات الحى.. بينما هو يلعب بى فى جرأة متوحشة.. ارتعشت رعبا منها.. ورغبتى فى التقيؤ زادت لدرجة أننى دفعته وجريت خارج الحجرة ونزلت إلى الشارع لا أنوى عمل شىء.. فقط جريت وأخذت ألعب مع بنات الحى حتى لا تكتشف أمى فعلتى.. ولأؤكد للجميع أننى مازلت طفلة.. وطفولتى التى أتمسك بها لم تهدر.

لم تدم الأمور كثيرا.. فلقد عرفت أن ما مارسته لا يجب أن تمارسه فتاة إلا مع زوجها لأنه شىء محرم.

ولم يأت بابتسامته وشيكولاتة مرة ثانية.. تركنا ولم يعد وترك داخلى رعبا مما اقترف وقرفا من نفسى.

انزويت ألملم نفسى.. وأصبحت رغم جمالى الباهر.. فتاة خجولة.. يحبنى كل شباب الحى وأتجنب عيونهم خجلا من نفسى.. مع أن الجميع يعتبرون هذا الخجل تاجا على رأسى.

أحبنى شاب صديق لأخى.. لم أبادله مشاعره.. فلقد قتلت مشاعرى فى بداية مشوار الثقة والأمان.

جاءت ليلة زفافى.. وببجاحته المعهودة.. حضر فرحنا.. فقتلتنى ذكرى النظرة والابتسام.

ما ذنب هذا الرجل. نظرت إليه.. إلى ملامحه وكأنها النظرة الأولى.. ابتسمت له.. إننى أريد أن أكون له الزوجة المخلصة، ويكون لى السند

والأمان والمستقبل.. وقد كان.. اندفعت إليه.. وتمنيت أن يسامحنى فى ذنب لم أكن أقصده، فمن حقه أن يكون أول رجل أو على الأقل أصارحه بالحقيقة.. ليغفر أو يرحل.

كان رقيقا مهذبا.. قويا شهما.. تمنيت مرات عديدة أن أبوح له بسرى.. ولكننى قتلته ليوقظنى فى أحلامى من كابوس مزعج مخيف.. أجد نفسى أرتمى على صدر زوجى، أحتضنه فى عنف لكى يحمينى من ذكرى طفولة معذبة.

يستيقظ.. ينظر إلى.. يمسح دموعى المتدفقة ويقبلنى قبلة حانية.. أفهم معناها.. وأحاول أن أنسى.

* * *

حد الموسى

الليلة سيخلع زوجى كل ملابسه. وقد جهز نفسه وبدنه ليفض غشاء بكارة عروسه الجديدة.

نار داخلى تغلى.. أتمنى أن أكون شيئا آخر غير نفسى وجسدى.. جسدى الذى عذبه أياما بفشله لأنه كان يجهل التعامل مع من هن مثلى.. وحينما استعصيت عليه.. لم يجد أمامه غير الطبيب و «حد الموسى».

حد الموسى – ما أسوأ ذكرياته معى – يقطعنى إربا.. أشعر أن الدماء تنفجر غلا من قلبى لتسيل فى أنحاء جسدى ويفور فورانا لا أستطيع إسكاته أو إخماده.

الناس المتجددة وحد الموسى المرعب.. يمزقنى.. ألقى برأسى على الوسادة وأتذكر طفولتى.. ألعب (الأولة) مع رفيقاتى وأقفز كالفراشة.. يتطاير ذيل فستانى ويدخل الهواء لى ويشاركنى لعبى.

تحتضننى أمى وتأخذنى ببساطة لامرأة قاسية ترتدى ملابس سوداء.. لم أستطع نسيانها ولا نسيان نظراتها القاسية لى وأنا كلى رعب منها.. ولا أفهم ماذا ستفعل؟!.. باعدت بين ساقى ونزعت ما يسترنى لتقطع بلا هوادة وبعنف جزءا حساسا من داخلى.. شعرت بألم فظيع لونه أسود كئيب.. أحاطنى من كل جانب.. أشعر وكأننى طائر غريد سقط فجأة من سمائه البعيدة فى وسط نار موقدة ليشوى ويأكله الناس متلذذين.

الكل حولى يبتسمون.. ويقولون لى «مبروك».. وأنال الحلوى كما أبغى وأريد.. أشعر أننى لم أقترف ذنبا لأعذب ويتقطع جزء منى دون استشارتى أو تحضيرى.. يقولون «طهارة» هل أنا قذرة حتى أتطهر.. من ما؟! ومن أى شىء أتطهر؟!

مذاق لعبة «الأولى» اختلف.. أصبحت أقفز كالضفدعة..فلقد أصبحت أدرك أن هناك فارقا وبسرعة.

وحينما كبرت وزارتنى آلام الدورة الشهرية ورأيت الدماء تذكرت «حد الموسى» والمرأة الفظيعة المرتدية السواد وارتميت فى حضن أمى وكأن بداخلى بلاء.. ما كل هذا العذاب.. ومن أجل ماذا؟!

تعلمت أن أخفى وجهى فزعا حينما أشاهد الشباب، فقد تخيلتهم أسودا متوحشة يهجمون على الظبيان.. ولا يتركون حتى عظامها.

أصبحت كلما شاهدت فيلما يتقاتل فيه الرجال وبيدهم السيوف.. أخبئ وجهى فسوف يذبحنى رجل بعدما ذبحت فى جسدى وطفولتى وصباى ومراهقتى بسببه.

هاجمنى الحب كما يهاجم كل فتاة.. لماذا نحب من نخشاهم.. لست أدرى.. هل أعجبنى لأنه شاب خجول؟! أم لأنه ميزنى واختارنى من بين جميع الفتيات؟!

تقدم لى.. أحلام كثيرة أحاطتنى.. كنت أتمنى أن يضمنى ويخبئ رأسى فى صدره لأتعلم أبسط معانى الحنان.. وأمارس الأمومة فى هدوء. لأبادله الحب بالحب.. وأعطيه ما تعطيه الأم لكل من تحب.

لم يتح لى الوقت لمعرفته أكثر.. والمناقشات الدائرة كلها كانت عن تفاصيل أثاث الشقة التى ستجمعنا معا.

فى يوم زفافنا.. لم تتح لى الفرصة لأتذوق طعم القبلة.. التى كثيرا ما حلمت بها، لأنعم بمتعة فتاة تمنت تلك الليلة.. وجدته.. يعرق.. يتلعثم.. يطلب منى أن أعامله معاملة مبتذلة – كالعاهرات – ليتجرأ.. ويرفع رأسه كرجل بين الرجال – من أين لى بهذه المعاملة – فقد كان كل ما يشغله هو إثبات رجولته. ولا يشغله الكم الهائل من الألم الذى على أن أتذوقه.

بعد أيام من فشله جاء قراره بالذهاب إلى الطبيب.. وعدت ثانية لأتذوق مرارة «حد الموسى» نفس الألم المتكرر.

عشت معه حياة جامدة فهو كالآلة.. لم يستمع يوما لصوت قلبى أو يعطى لإحساس فرصة.

أنجبت له.. واستمتعت بالأمومة، وأنا أشفق على ابنتى من نفس مصيرى.

كثر المال فى يده.. وكبر مركزه.. ونسى ارتعاش يده وتعلثمه.. وبدأ يأمر أوامر جديدة.. فيها من الأمر والنهى الكثير.. يعيش عالم آخر من الملبس والمأكل والسهر والأصدقاء الجدد.

أنظر إليه فى حيرة متسائلة:

هل من الممكن أن يتغير الرجل؟!

تأكدت.. وأؤكد لكم ذلك.. أكثر من مرة.. نعم.

صغيرة.. جميلة.. تتدلل.. لم يمسها «حد الموسى» أبدا.. بحث عن أشياء تنقصه.. وجدها فيها.

لم أستطع أن أحمى نفسى أو بيتى.. استسلمت ببساطة «لحد الموسى».

السماء دائما زرقاء

اشترك العالم فى صنع القرار.. فهناك الدولة المتقدمة والدولة التابعة، والدولة التى تخوض التجربة.

ومصر هى الدولة التى عليها أن تخوض التجربة، وصديقنا عاش فترة بعيدا عن مصر.. وشاء حظه أن يصل إلى القاهرة مع بداية خوض التجارب للعهد الجديد.

والعهد الجديد باختصار.. هو طابع شمولى لا يعرف الانحراف عن الخط، فلقد تحولت المنطقة إلى شرق أوسطية جديدة مقسمة فهذه منطقة لشعب الله المختار، والأخرى لشعب يؤمن بالمحبة والغفران والتسامح، والأخير لا يعلو فيها أى صوت على صوت القوانين القديمة.

شعر أنه يتنفس هواءً خانقا..والسماء تحولت من صفاء السحاب إلى لون رائع.. لون واحد رمادى لا يعرف التغيير أو التبديل.

جلس صديقنا يكتب فى متعة الهاوى الذى يمارس هوايته فى حوار عقلى كأنه يلعب الشطرنج أو حتى الطاولة.

وتنظر إليه زوجته بافتتان.. ونظرة المرأة إلى الفنان الذى يعزف كل الألحان.

وقالت له:

- ستكون يوما ما سيد الزمان وكل الرجال.

يخجل من حبها وتقديرها ويقول لها فى تواضع تام:

– ما أنا إلا هاو، دفعته ألوان السحاب للهروب إلى الأوراق.. قد أكون هاربا ولكننى أتنفس على الورق لعلى أثبت عكس ما كان.

يلهو أطفاله حوله فى سعادة، فوالدهم يملك ما لا يملكه غيره.. إبداع وفكر خلاق.. وحرية رأى تصل إلى قمم الجبال.

وذات مساء دق الباب دقات تخلع عن القلوب الثبات والأمن، واقتيد صديقنا إلى مكان ليس فيه ألوان.. ظلام وخوف تخشاه حتى الكلاب، وبدأ التحقيق والعذاب بضربات لا تنال سوى من كرامة الإنسان.

بكى على كرامته فلا يملك الإنسان فى عمره غيرها: كان هناك أمر واحد الندم على كل ما قال وفكر وكتب على الأوراق.

فالخوف صعب والإهانة أصعب وفكرة الموت تخيف الإنسان لأنه يخاف الألوان.

تردد فى الاعتراف بالندم.. فلا يملك سوى رأسه وفكره.. وجاءت أخيرا زوجته ونظرات الرجال تعريها.. وتؤكد له أنها عارية أمامهم.

لم يبك ولكن ركع معترفا بأنه أحمق الرجال.. وأقل المخلوقات شأنا.

وخرج والخوف يصاحبه مع زوجته.. ونظرات الإعجاب قد ضاعت فى الطرقات.

وفى الصباح التالى.. ودع قلبه ورأسه وألقى بالورقة والقلم.

وذهب إلى مكان يشاهد فيه العالم خلال حديقة مجاورة.. لقد أصبحت الطرق سوداء والأشجار والنباتات، حتى السماء الرمادية أمطرت.. مطرا أسود.

فنظر إلى قميصه الأبيض لقد لوثته الأمطار.. فهرول إلى منزله وقابلته زوجته كعادتها.. فقال لها فى هلع:

– أنا آسف لقد سقط القطران من السماء على قميصى.. هل تعتقدين أن من الممكن تنظيفه وإزالة ما علق به من البقع؟

أخذته بين ذراعيتها وابتسامة باهتة على شفتيها قائلة له:

– لا تقلق فالسماء دائما زرقاء.

* * *

صديقنا

استلقى صديقنا ليشاهد آخر الأخبار.. وغفا كعادته.. وفوجئ أمامه بكلب أبيض أليف.. ينظر إليه بعيون منكسرة..

فسأله فى دهشة؟!

- أنت هنا؟! منذ متى؟ وكيف جئت؟

رد ابتسامة ساخرة وهو يهز ذيله

- أنا دائما قريب منك.. تجدنى كلما شاهدت نشرة الأخبار.

باندهاش أكثر:

- هل أنت قريب لهذه الدرجة؟
- أقرب لك، ومنك، وأكثر مما تتصور.

فوجىء برده فسأله مستفزا:

- خبرنى عن نفسك؟!

رد بنفس النظرات المنكسرة:

- أعيش كباقى المخلوقات..

أراد أن يستوضح موقفه من الحياة فسأله..

- هل أنت راض؟!

هز ذيله ونظر إليه بانشقاق قائلا:

- الرضا لدى ليس كرضاك.. فأنت تفنى وقتك فى البحث والتفكير.. وأحيانا فى اللاشىء.. أما أنا فقانع حتى نهاية العمر..

احتار صديقنا وأراد أن يستوضح الموقف أكثر..

- حدثنى عن آمالك ومشاعرك..

رد وهو ينظر بعيدا كالفلاسفة:

- أعيش يومى مثل أمسى.

استفزه الرد وأراد أن يحدد الموقف بسؤال حاسم:

- أليست لديك كرامة؟!

رد الكلب بانفعال:

- لماذا تتحدثون عن الكرامة..إن الكرامة شىء نسبى.. لو كانت لدى كرامة بمفهومكم لمت فى التو واللحظة.. أنا أهز ذيلى لمن يعطينى طعامى.. وأعيش سعيدا بأن أكون خادما وفيا حتى لو جاء طعامى من مجرم سافل.. فنحن الكلاب لنا فلسفة.. غيركم يا بنى البشر.

- هل هناك فرق بيننا وبينكم؟!

أعتقد أنه فى عصر العولمة تلاشت الفروق وضاقت المسافات جداجدا..

أفاق صديقنا فى غفوته ليفاجأ بنهاية نشرة الأخبار.. فيغلق الجهاز متوجها إلى فراشه ليغُط فى نوم عميق.

* * *

الجانى شتراوس

أنا قاض، الأول دائما على زملائى منذ أن كنت بالابتدائية حتى الجامعة، الأول فى العلوم والرياضة حتى الفنون.

فى النيابة كنت أبرع ممن حل المسائل الجنائية وتحدثت عنه الصفحة، ذكاء واستقامة، تدرجت فى سلم القضاء، كنت حاسما كالسيف، بروح القانون، والعدل.. وامتد أداء رسالتى بعد السن القانونية. لولا رحيل زوجتى.. واضطراب نفسيتى لما رحبت بالمعاش.

انشغلت بأولادى المتزوجين، وابنتى المخطوبة التى شغلت مساحة كبيرة من الفراغ، وأصبحت أكتب للصحف فى القانون والرأى بإيجابية شديدة.

فى الشهور الأخيرة شغلنى أكثر تجهيز شقة ابنتى.. صفات خطيبها قريبة جدا من صفاتى، أذواقنا متشابهة..

والدتــه «كاميليــا».. واسمهــا كزهرة جميلــة، وأنــا اعتبرها كاملة الصفات.

حينما يبدأ النقاش معها.. أشعر أنها تعبر بالضبط عما فى صدرى من مشاعر وآراء.. سيدة رائعة، أرملة مثلى. المصادفة أنه آخر أبنائها أيضا وكان صعبا عليها فراقه، لكن جمال ابنتى كان حاسمًا.

ابنتى.. لها نفس أرائى واهتماماتى.. حينما نتجاذب نحن الأربعة الحديث نشعر أننا نتكلم لغة واحدة.

تزوجت ابنتى، الوردة النضرة، البسمة الرقيقة.. فى أثناء شهر العسل كنا نطمئن عليهما أحيانا عن طريق الهاتف.

الحديث يبدأ عنهما.. ثم نتطرق إلى أحاديث أخرى.. فهى مواظبة على التمرينات الرياضية وأنا مواعيدى مع كرة المضرب ثابتة لم تتغير من سنوات.

كنا نتحدث بحيوية الشباب، فى كافة المواضيع، حتى الموسيقى الكلاسيك «بيتهوفن».. «موزارات».. «باخ».

بعد انقضاء شهر العسل بشهور واظبت على الاتصال بى وأحيانا نتشارك سويا فى سماع مقطوعة كلاسيكية رائعة.

إلى أن جاء الوقت الذى تجرأت وطلبت منها أن نذهب للأوبرا لروائع الموسيقى.

قالت بدون تردد:

– موافقة.. يوم الخميس سأقابلك هناك.

شعرت بالحيوية تدب فى أوصالى.. لا أريد استعمال مصعد المنزل.. أريد أن أتمتع بقفز السلالم.

فجأة تذكرت.. أننى لابد أن احترس، فالطفل يخشى فقط أبويه، أما من هو فى مثل سنى فهو يخشى أبناءه والناس.

اتصلت بها مرة ثانية:

– الموضوع ده.. بينى وبينك..

ردت بثقة عالية:

– طبعا.. طبعا.

لبست أفضل مالدى.. نظرت للمرآة أكثر من مرة.. مع دقات قلبى الذى شعرت أنه يقفز من الستين إلى العشرين مرة واحدة.

وصلت بسيارتى.. اللامعة، تلاقت عيوننا. رائعة الجمال.. شاب فى الثلاثين مع فتاة فى العشرين.

مدت يدها إلىّ.. صافحتها.. سرت رعشة أول لقاء فى يدى.. تذكرت «روحية».. هل من الممكن أن أخون عشرة العمر.. رحلت عنى.. إخلاصها مازال فى دمى.

جلسنا متجاورين.. فى انسجام تام.. المايسترو رائع يحرك الجميع بعصاه فى تناغم بديع. بدأ فى عزف الفالس الشهير «شتراوس».

شعرت أن عصاه تحولت إلى سكين تقطع الحبال من حول قلبى لينطلق ويرفرف كالذبيح.. الموسيقى الحاملة تعانق يدى مع يديها فى السماء، ونقفز من سحابة إلى أخرى فى رشاقة الشباب.

قلبى يدق فى عنف. المايسترو قاس. يقطع قلبى قطعا لأتمتع بآلام الحب.

خصرها الرقيق تحاصره يداى فى رقصات لا تهدأ.. المايسترو لا يرحم.. ينطلق بى فى الفضاء.

أصل إلى بقعة لامعة فضية رائعة الجمال أخذت أرقص على سطح القمر كأروع ما فى حياتى وكل ما يتمناه خيالى.

الرحمة يا مايسترو.. ارحمنى يا «شتراوس» إننى أتصبب عرقا أنفاسها الحامية تلهينى.. متعة فوق طاقة البشر.

هدأت الموسيقى هبطنا إلى أرض الواقع نظرت إليها.. أنفاسها المتقطعة تؤكد لى تمتعها بمشاركتها الرقص معى.

انفض الحفل.. دعوتها لتوصيلها للمنزل.. لسان حالها يقول لم نرتكب أى خطأ.

ألتزم بالقانون. وقفت أمام إشارة المرور.. سيارة تصدمنى من الخلف صدمة عنيفة.. أنظر خلفى.

أرى قائد السيارة يخرج منها بسرعة قائلا:

– «أنا عقيد شرطة.. حضرتك مالكش ذنب وأنا كمان».

أنا أخذت نمرة العربية اللى خبطتنى.. فاندفعت أنا وخبطتك لازم نعمل محضر عشان يأخد جزاءه.

اتصل بزملائه.. امتلا المكان فى دقائق.. قلت له:

– طيب المدام.. تروح.. وأنا مع سيادتك.

– لا يا أفندم هى شاهدة على اللى حصل.

كدت ان أنحنى لأقبل يده ليتركنا.. فأنا متنازل عن حقى.. وهى غارقة فى صمتها.

امتلأ الشارع.. خشيت ألسنة الناس وتصببت عرقا .. وقمت بعمل أخرق.. قدت سيارتى بسرعة تاركا المكان.. وقريبا من منزلها.. واغتصبت ابتسامة قائلا:

– مع السلامة.. السهرة كانت رائعة.

مضت الساعات علىّ صعبة.. نسيت فالس «شتراوس».. الأمر الملح عن كيفية الخروج من مأزق الشرطة.

دق الباب

– رجل شرطة معه ورقة مكتوب عليها:

– يحضر فلان مع السيدة زوجته للسؤال.

المولود الأخير

مع الأشعار عبر عن حاله.. نظم ديوانا تلاه بآخر.. جلس بين زملائه ليلقيه.. انشغل أقربهم إليه بطعام والآخر بأخبار الرياضة وانهمكت واحدة فى الرغى عن تجهيز عش الزوجية.

بلغت الحيرة به مداها.. أيستمر فى الكتابة أم ينساها؟

كتم أفكار قصص وروايات وهو يريد أن يكتب على الورق والحائط ووجوه الناس.

دله ذكاؤه على الربح فكسب الملايين ولم ينس أشعاره، ففيها كل آماله وآلامه.

سافر بلاد العالم وقرأ مقطوعة على لوحة:

(عندما أعطيت الطعام للفقراء.. قالوا عنى ملاك وعند سألتهم لماذا هم فقراء.. قالوا عنى شيوعى) تأمل الحال فى غرفته.. أمسك بورقة وقلم ليقول.. دخلت عليه زوجته حاملة طفليهما:

- ألا تفكر فى مستقبله.. وحمايته من الأيام؟!

تجرأ بكلمات فى السياسة والفكرو الدين.. احتار النقاد فى تفسيرها ولاحقه رجال السلطة.. فهذه من المحرمات.

داخله طاقة تخرج منه أو تقتله.

وعليه أن يدفن مولوده داخله.. وتساءل: هل تستطيع الأم أن تدفن وليدها؟

أغلق على نفسه حجرته وأخرج أبناءه فى رأسه وقلبه على الأوراق، فأخيرا حصل المدمن على حصته من الإدمان.

انتهت الأم المخاض.. أطفاله يملأون الغرفة صخبًا وشقاوة.. ينظر إليهم بابتسامة.. يردون عليها بضحكات مجلجلة.

المولود الأخير يصر أن يخرج للشارع وبعملية قيصرية فتح النافذة وقفز فى السماء يرفرف فى سعادة.

* * *

مواطن يعلن: أنا عيل

صديقنا طويل القامة، نحيف القوام، هزيل الجسد، يحمل رأسا كبيرا، يتميز بعينين واسعتين تملكان القدرة على الملاحظة السريعة الدقيقة.

وملامحه الحادة تميزها أذنان كبيرتان فى طرافة، تسمعان أكثر من اللازم مما يدور حوله.. وهو يأخذ الأمور كلها ببساطة، فلقد امتاز بين الأصدقاء بإلقاء النكات وتأليفها أحيانا، وصديقنا موظفا بسيطا فى مكتبة عامة بجوار منزله، يذهب إليها يوميًا فى موعده دون غياب، ملتزمًا بالسير بجوار الحائط، محترمًا إشارات المرور القليلة فى طريقه، وبفضل وظيفته قرأ الكثير، فتنامت فى عقله الأفكار وربط الماضى بالحاضر بالسياسة والتاريخ.

وهو راضٍ عن حياته.. طبق الفول صديقه، يدعيه بكلمة (الفوليزم) وهو وجبته المفضلة ربما عن غير اختيار، يتناول ويشرب بعدها ماء القلة فى سعادة تامة وارتواء.

ولم يكن ينغص عليه حياته سوى الأرق.. فأقل صوت يقلقه، ونصحه أصدقاؤه بالزواج. وكان رده عليهم دائمًا: لن يترك أمه المريضة.. ووالده العجوز؟!.

وبدأ فى شهوره الأخيرة يهذى بكلمات لا يفهمها الأصدقاء. واعتقد البعض أنها هلوسة طارئة.

كان يقول وسط المزاح والنكات.. كلمات غير مترابطة.

العولمة.. عالم واحد.. الشرق أوسطية.. بؤرة العالم.. مهد الحضارات.. منابع الطاقة، شيوخ الثروة الطائلة، وطائرات أطاحت بناطحات سحاب.. ومازال الحكام صامدين، ولا اعتراض على سلوك الطغيان بل البحث مستمر عن صكوك الغفران.

ويصمت قليلا.. وينظر بعيدًا وفى فلسفة غريبة يقول وهو لا ينتظر تعقيبا:

- خلال خمس سنوات ستسقط الدولتان الأموية والعباسية.

واختلطت أفكاره بكابوس أحلام الأرق اليومى، فبدأ يردد فى مجالسه كلامًا عن السقوط فى هذيان ممقوت!

وذات صباح اكتشف أن بطاقته بالية.. وطلب إجازة عارضة وذهب للقسم القريب.. يستخرج (بدل تالف).

قدمها للموظف المختص.. الذى قلبها فى يده، وقام من مكانه وقاده وسط دهاليز القسم إلى غرفة فى آخر الممر أمام بابها مقعد.. وقال له آمرا:

- اجلس هنا.. حتى تقابل سعادة الباشا.

لم يعترض.. ولم ينبس بكلمة لأن دقات قلبه الشديدة تسمعها أذنه الكبيرة.. وتصبب عرقا فى عز الشتاء، وجلس فى هدوء تام. ولم يكن هناك حارس فجلس فى المكان المشار إليه ولم يفكر أن يتحرك حركة واحدة.

ونظر إلى الغرفة من بعيد.. هناك ثلاثة رجال أقوياء أياديهم خلف ظهورهم وتمتلكه الرغبة فى المعرفة ودفعه الفضول.. فأطل برأسه قليلا..

سعادة الباشا لا يظهر وجهه.. فقط جزء من مكتبه الذى يضع عليه قدمه وحذاءه الأسود الذى يبرق لمعانا.

وفجأة بدأت حفلة التعذيب.. شاب ضئيل الجسم صغير السن.. يبدأ فى ممارسة رياضة الكاراتيه والملاكمة والصفع فى سيمفونية عنيفة متواصلة، واستجابت لها دقات قلبه فصنعوا تحفة فنية قاسية.. يقطعها من حين لآخر صراخ مكتوم بأمر الرجولة أو سعادة الباشا. وانتهت الحفلة.. وشعر أن قلبه قد انخلع رعبا.

وخرج الثلاثة.. وجاء بعدهم حارس معه رجلان وامرأة.. وبكى الرجال كالنساء أمام المرأة المرتجفة فى هلع ظاهر..وجاءت أوراق لتوقع وسط خضوع تام.

وصديقنا يشحذ فكره لعله يتذكر جريمته.. ليعلن توبته.. فتذكر يومًا أنه سرق سيجارة من والده ودخنها.. لا.. ليست هذه هى القضية، فلقد كان صغيرًا وتاب عن فعلته.

نعم يتذكر.. لقد أحب مرة فتاة جميلة، جارته أحبها فى صمت ولم يتحدث معها ربما فضحته نظراته.. واكتشف أمره واشتكته بعد زواجها لزوجها وسوف يتم تعذيبه لأنه أحب يومًا.. هل الحب جريمة؟!

القلق يعتريه ودقات القلب لا تهدأ، وأخيرًا اهتدى للخطأ العظيم. لقد ألقى فى أيامه الأخيرة نكتة ويقسم أنها ليست من تأليفه ولكنه نقلها.. الأولى عن شاب وجد مصباح علاء الدين.. فلما دعكه ظهر حارسه المارد وسأله عن أمنيته؟ فقال ببساطة: أريد أن أكون ابن رئيس الدولة.

فقال المارد: تحققت أمنيتك، اعتبر نفسك من الآن ابن رئيس الدولة.

فقال بلهفة: طيب يتمنى.

تملكته رعشة وهذيان وتمتم بكلمات لا يفهمها.. لماذا لا يكف لسانه عن الكلام الصامت؟.. وفهم معنى جملة الرعب.. إن ما خليتك تكلم نفسك.

أراد أن يبكى فلم يجد الدموع.. وبحث عن السبب ربما كان فى نكتة أخرى تذكرها.

اصطحب رئيس الدولة ثلاثة ملوك ورؤساء دول إلى كافيتيريا أحد الفنادق.. وطلب لنفسه قهوة سادة وطلب لهم شيبسى.

ولم تعد النكات تضحكه، بل ذكرى تؤلمه، ياليته ما ألقاها أو تكلم بها ويا ليتهم يسامحونه عن الخطأ فى الإخوة العرب والعالم والعولمة و١١ سبتمبر.. وأقسم لنفسه إن خرج سليما.. فلن يقرأ أو ينكت.

وأشار إليه الحرس بيده.. فدخل على سعادة الباشا وشعر أن شعره التصق برأسه من العرق الغزير، ورغبته فى البكاء قد غلبته، ونظر إليه الباشا بنظرات قاسية مريرة.. وهو يقلب فى بطاقته البالية:

- اسمك محمد أحمد محمود؟

لم يشعر بنفسه.. إلا والدموع تندفع من عينيه ليركع ويمسكه بيده المرتجفين وقال فى توسل ذليل وبنبرات صادقة:

- حرمت.. أنا عيل..

* * *

١ - لماذا بدأ الكاتب بوصف الشخصية الرئيسية بالصفات الطبيعية الموجودة؟!

(أ) شخصية طبيعية. (ب) كوميدية.

(جـ) شخصية تاريخية.

٢ – هل الشخصية رئيسية:

(أ) مواطن عربى. (ب) مواطن مصرى.

(جـ) مواطن من عالم ثالث.

٣ – ما المقصود بعمل المواطن.. وطريقه اليومى؟!

– مثقف ومفكر – ملتزم – جبان – يحترم القانون

– شخصية كوميدية.

٤ – لماذا هاجمه الأرق من أقل صوت؟!

– أحداث سبتمبر – فلسطين – السياسة العالمية

– سياسة الدولة العليا – أرق لأنه (أهبل) – مريض

– كل هذه الأمور.

٥ – ما الربط بين الأرق وكلمة العولمة.. حتى طائرات أطاحت بناطحات سحاب:

(أ) ضياع المنطقة لدخولها فى النفوذ الأمريكية.

(ب) الخطر على مصر فى المرحلة القادمة.

(جـ) الخوف على العالم فى المرحلة القادمة.

(د) الهيمنة الأمريكية فى المرحلة القادمة.

٦ – ما المقصود بأمه المريضة.. ووالده العجوز؟..

– هل أمه هى مصر – ووالده هو التاريخ أم غير ذلك.

٧ – من هم الحكام الصامدون؟!

– حكام من العالم العربى – من العالم الثالث

– لم يحدد شيئا بالضبط.

٨ – لم تقدم صكوك الغفران؟

– للأمم المتحدة – للعالم العربى – للولايات المتحدة.

٩ – لماذا يقول خلال خمس سنوات ستسقط الدولتان؟

– هل المقصود مصر ودولة أخرى؟

– هل هى بغداد ودمشق؟

– هل هى دولة فى العالم الثالث؟

– أو لادولة على الإطلاق.

١٠ – ما المقصود بكلمة.. اجلس هنا.. حتى تقابل سعادة الباشا؟

– عدم الحركة – حتى لايف

– ممارسة السلطة التقليدية على المواطن.

– رمز إلى السلطة تقيد حركة المواطن.. وهو مطيع.

١١ – لماذا يكتب الكاتب: دقات قلبه الشديدة تسمعها أذنه الكبير؟!

(أ) مشهد كوميدى. (ب) أذن كبيرة لأنه يسمع أكثر مما يجب.

(جـ) دقات القلب الواعية.. تفهمها أذنه الجيدة – لا يقصد شيئا.

١٢ – ما المقصود بالبطاقة البالية؟!

– هوية المواطن انتهت.

– ليس له أساس لأنه ضاعت معالمه.

– بطاقة تالفة أمر طبيعى.

١٣ – من هم الثلاثة رجال الأقوياء وأيديهم خلف ظهورهم؟

– الحرية والقانون والدستور – الأهرامات الثلاثة – الصحافة

– لصوص ومجرمين.

١٤ – لماذا تعمد إخفاء الضابط.. وأظهر حذاءه الأسود الذى يبرق لمعانه؟!

– للإثارة – لأن السلطة تلمع وليس لها عقل – السلطة السوداء

– العقل يلمع بالفكر.. والنور وليس بالظلام والسواد.

١٥ – من هم الرجال الذين يبكون.. والنساء المذعورات؟!

– الشعب العربى – الشعب المصرى – تزييف الانتخابات

– تزوير أوراق مهمة.

١٦ – لماذا يفكر المواطن فى تهمة سرقة سيجارة أو أحب بنت الجيران؟!

– لأن السلطة تريد كل إنسان جبان.

– لأنه ارتكب خطأ كبير.

– لأنه يبحث عن شىء يبرر به خطأه

– يدافع عن نفسه.

١٧ – ماذا يقصد الكاتب من النكات؟

– لإثارة الضحك – للمهزلة السياسية – لهيكلة قصصية

– للسخرة والتورية.

١٨ – من هو رئيس الدولة.. والثلاثة الذين يطلبون الشيبسى؟!

– هل هم رؤساء دول عربية؟

– رؤساء دول العالم الثالث.

– ليسا رؤساء بل أطفال.

– لا يقصد شيئا.

١٩ – لماذا قرر ألا ينكت؟ ولماذا يعتذر للعالم العربى والعولمة و١١ سبتمبر؟!

– لأنه جبان – حائر – الخوف يعتريه – بلا سبب – لأسباب أخرى.

٢٠ – ما المقصود بالنهاية؟!

– صفة قبيحة – سخرية – كوميدية – حزينة – لا معنى لها

– غير مفهوم – تعبر عن الوضع العربى الراهن

– مشكلة الشرق الأوسط.

– مشكلة حقيقية للمواطن العربى والمصرى.

٢١ – هل القصة لها تكوين القصة القصيرة من بداية ونهاية وحبكة ومعنى وتعالج وتعرض أمرا؟!

– نعم تعرض المواطن للقهر

– لا تعرض شيئا.

– بها فكر يعبر عن وضعنا الحالى.

– كوميدى – قصة بوليسية

– لها بداية: التعريف بالمواطن والحث بالبطاقة البالية ولها نهاية مؤلمة.

٢٢ – هى القصة القصيرة تحتاج لفكر وإبداع وعرض موضوع ومعالجة مقصود؟!

– أن يكون ملما بقواعد اللغة.. والإلقاء؟!

– أن يكون خريج كلية دار العلوم

– خريج الأزهر.

– مذيع فى الإذاعة – مجامل – صاحب رأى حر وجراءة فكر.

– يشاهد أفلاما هندية وأبيض وأسود.

٢٣ – هل الوضع الحالى هو الحافز الأساسى للكاتب؟! وما هى الفكرة الرئيسية فى عنوان القصة والموضوع؟!

– تهريج وكوميديا – آلام الوضع الحالى فى المنطقة

– تعبير مفكك – لا يفيد فى شىء.

* * *

خلاص ريحوه

انتصر صديقنا الصغير أخيرا على المرض.. ولكن ضعف جسده الواهن يمنعه من اللعب مع أطفال الحى.

وجاء العيد الذى يجلب كل شىء جديد، الكل سعيد بمن فيهم صديقنا..فلقد بدأ سطح المنزل يمتلئ بخراف العيد، وذهب صديقنا ويده ممسكة بيد والده إلى حيث خروف العيد.

تركه والده.. ليلعب مع الخروف.. كما يفعل باقى أطفال المنزل الكبير ونظر صديقنا لعينى الخروف الواسعتين.. حاول أن يقرأ ما فيهما من كلمات، فلم يستطع أن يقرأ الكثير.. سوى الهدوء والاستسلام.

ينحنى الخروف ليأكل.. أو يشرب.. أو يجلس فى هدوء تام كفلاسفة الزمان.. لا يفهم أحد ما يدور فى عقله.

فكر صديقنا أن يغير من طبع الخروف المستسلم، ليكون شيئا يذكر، فك رباطه.. فانطلق.. وأصبح هناك فرق بينه وبين باقى الخراف.

وبدأت بينهما علاقة التعارف، فى الجرى واللعب ويمد يده بالبرسيم فيأكله.. وأحيانا أخرى يرفضه.

وخلال أيام قليلة قهر صديقنا باقى المرض.. وانفتحت شهيته للطعام.. والكلام وأسعد بذلك أبويه.

ولكن حياته تحولت فجأة من اللعب بالمنزل أو مع باقى الأطفال إلى سطح العمارة حيث صديقه الجديد.

فالخروف.. الفيلسوف لا ينطق سوى كلمة واحدة فقط.. ماء.

وحاول صديقنا أن يعلمه أشياء كثيرة فأصر إصرارًا غريبا على شخصيته دون تغير يذكر.

وصديقنا ينظر إليه بإعجاب شديد بدءا من عينيه الجذابتين.. ومرورًا بفروته الغزيرة إلى هدوئه العميق والاستسلام التام.

وفى صباح يوم العيد لبس الرجال ملابس بيضاء كالملائكة لأداء صلاة العيد وبعدها الذبح.

وشاهد صديقنا رجالا أشداء يسنون آلات الذبح.. وأطفالا صغارا مثله يلبسون الجديد.. ويجتمعون فى حلقات.

الضحايا تجتمع أيضا.. وكأنها تعرف مصيرها دون احتجاج يذكر سوى من كلمة واحدة «ماء» تليها «ماء» أخرى.

يتقدم الجزار القوى بسلاحه المسنون.. وفى ثوان وبحرفة يفتخر بها يذبح الخروف المستسلم.. فتندفع نافورة من الدماء.. ويرتجف بعدها الخروف.

وينظر صديقنا إلى باقى الأطفال.. إنهم أيضا يرتجفون.. والبعض يضع يده على فمه ليمنع صراخه..بنت الجيران صرخت وأخفت وجهها.

وأصر الحاج «أنور» على أن يشارك ابنه فى الذبح.. أما الحاج «محمد» فلقد أعطى لابنه العصا لكى يضرب الخروف بعد نفخه والذى أصبح كالكرة.

فالعمارة كبيرة، واتفق الجيران مع جزار واحد.. ومساعديه.. يذبح وينفخ والآخر يعلق ويقسم.. كل بدوره فى نظام وإتقان.

ونظر صديقنا إلى صديقه الفيلسوف.. وترك المكان فى هلع تام مندفعا إلى أمه وارتمى فى حضنها باكيا.. يرجوها أن تنقذ صديقه من حفلة الإعدام.

لقد كره هذا الجزار الذى يتباهى بسلاحه.. أمام مخلوق ضعيف مستسلم وبدأت أمه بالشرح المفيد.

إن لكل مخلوق قدره.. ودوره فى الحياة.. وقدر الخروف أن يذبح لنأكله وهذا دوره فى الحياة.

لم يقتنع صديقنا.. وبدأ بكاؤه يتعالى إلى درجة الصراخ فى محاولة لإنقاذ الصديق الفيلسوف.

وبعد فترة فتح باب الشقة.. وجاء والده..بعدما شاهد انسحابه من الحفل السعيد فى يوم العيد.

فوجئ الأب ببكاء الابن وسأل أمه.. وأفصحت عن السبب وعما قالت له.. وكيف أنه لم يقتنع.

وخطرت للأب فكرة جديدة فقال له:

يابنى الخروف عايز يضحى بنفسه.. سعادته فى إنه يندبح.

فقال له صديقنا فى براءة وصوته يكاد يخنقه التأثر:

هو فيه حد يحب يندبح؟!

فابتسم والده فى هدوء وثقة وقال:

أيوه يا حبيبى.. الخروف بيستريح لما يندبح.. ده دوره فى الحياة.. ليه إنت مش عايز تريحه.. وعايزه يعيش ويتعذب.

حاول صديقنا أن يقتنع أمام رأى والده..فكيف فى سنه الصغيرة يعرف ما يعرفه والده.. إن ما يقوله والده بالتأكيد هو الحق.. والصدق.

فقال والدموع تملأ عينيه:

- خلاص ريحوه؟!

* * *

سكت واقتنعت

هنا إجابة عن كل سؤال:

منذ صغرى أنظر للنجوم والقمر، وأكاد أتحدث إليهما، وعلمت أن هناك ربا خلق كل هذا الكون.

والدى أستاذ التاريخ علمنى الكثير...وحينما نظرت للأهرامات بانبهار سألته فى فضول:

● هل الهرم قبر؟! وبنى فى عشرين عاما لرجل مثلى ومثلك.

– أبدا.. هذا بنى حبا للملك العظيم فرعون.

● محبة..أم شعب منافق تعود على العبودية. وبنظرة حادة سألنى:

– ألم تقتنع.؟!

سكت واقتنعت.

* * *

فى حجرته صورة الملك الشاب تزين المكان.

قال لى:

جلالة ملك مصر والسودان.. من الأسرة العلوية أساس الحضارة الحديثة.

نظرت إلى الملك.. شاب صغير.. تبدو عليه ملامح الطفولة سألته:

● كيف يحكم مصر طفل؟!

– بلدى بلد ديمقراطية.. الوفد صاحب الأغلبية.. وسعد زعيم الأمة والنحاس خليفته.

– سكت واقتنعت.

* * *

نكبة فلسطين.. دموع على شعب مسكين.. يعيش كاللاجئين.. وبعد حرب خسرناها.. قامت الثورة ورحل الملك..

وزينت غرفة والدى بصورة رجال الثورة. أحببت بنت الجيران.. من سوء حظى كانت يهودية.. فى عمرى هذا لا نفرق ولا نختار من نحب.. فالحب كالقدر لا مفر منه.

وترحل حبيبتى تاركة وأهلها ديارهم. كتمت نظرة الحزن.. فالكل يصفهم بأنهم خونة.

● أليسوا مصريين؟!

– لا، هم خونة.

– سكت واقتنعت.

* * *

تم تعيينى مدرسا مع أنى مهندس.. مرتبى بسيط لا يهم، فإنى مؤمن بالاشتراكية كفاية عدل.. والسؤال الملح لمن؟!

حرب ١٩٦٧.. هزيمة.. قالوا نكسة.

– سكت واقتنعت.

مات الزعيم.. وقالوا عنه كلاما كثيرا

تساءلت:

ألم يحارب من أجل الاستقلال والكرامة... والفقراء... والتعليم والتصنيع والسد العالى والتحديات الصعبة، وواجه الطامعين فى المنطقة؟!

- الهزيمة.

- أعظم البلاد هزمت وبالاصرار ويأتى الانتصار.

- هو حاقد.. التأميم.. وحرب اليمن وحب النفاق حتى من الزملاء.. ونال جزاءه ومات مهزوما

- سكت واقتنعت.

* * *

أحببت فتاة.. رقيقة الحال.. قالوا لى تزوج من صاحبة المال والجمال.. تزوجت الجميلة.. وتركت الفقيرة.. بعد سنة واحدة طلبت منى العمل بالدروس الخصوصية، رفضت لأنها حرام، جاء الكلام من كل مكان.. بأن كل شىء مباح

- سكت واقتنعت.

* * *

حرب أكتوبر.. فرحة غامرة بعد العبور. نستعيد الأرض كلها.. والحقوق والكرامة.

مع احتفالات النصر.. ومباحثات فض اشتباك على بعد ١٠٠ كيلو متر من القاهرة تساءلت.

لماذا نتوقف عند هذا الحد؟! وقد قلتم لنا أنها حرب مقدسة، وستعود لنا أرضنا وقدسنا وحقوقنا.. وأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

– لقد انتصرنا حتى لو كان شبرا واحدا.. وباقى الأرض بالمفاوضات.
– وان هذا نصراً مبيناً.
– تقصد نصراً مهيناً.
– هل انت جند انت انتصرنا.
– سكت واقتنعت.

* * *

– انفتاح.. «على بابا» يغترف من كنز اللصوص. نحن شعب (على بابا) اشتركت معهم.. وأنا ساكت ومقتنع.

* * *

– زيارة تاريخية رفضتها.. لأننا بدأنا حربا معا للمبادىء.. ولابد أن نكون معا للنهاية.. كرامتنا.. عروبتنا.. شخصيتنا.. تاريخنا.
– هذه شجاعة وبطولة. وإن جنحوا للسلم فاجنح لها.
– هل جنحوا للسلم؟!
– سكت واقتنعت.

* * *

قمت بعمل ايجابى فى حياتى صوتت بـ لا.. دائما النتيجة ٩٩٪ وإجابتى لا نصيب لها.
– سكت واقتنعت.

* * *

حرب إيران والعراق.. كيف يفعل العرب ذلك.. مليارات تضيع.. والألوفات فى النار، هل أصابهم الحول ألا يعرفون من هم الأعداء؟!

– إيران شيعة.. وطامعون فى ذهب الخليج.. والعراق أسود يصدون الغزاة.

– سكت واقتنعت.

* * *

مجلس تعاون خليجى وتحالف رباعى، وانتهى الكلام فجأة باحتلال الكويت.

– العراق معتدية.. لا.. ظالمة وخائنة، فالعراق أهل غدر ونفاق.

– والأمريكان يقاتلون العرب باسم الحق.. فهم أصحاب رسالة إنسانية.

– مع من؟!.. سكان البلاد الأصليون أم مع فيتنام اليابانيون.

– بيدهم.. ١٠٠٪ من أوراق (الكوتشينة).. اسكت

– سكت واقتنعت.

* * *

ابنى طبيب تزوج من طبيبة.. والدها لديه مستشفى استثمارى هائل، وابنى الآخر مثلى مدرس ولديه الآن مدرسة خاصة، وابنتى تزوجت من ثرى عربى فضلته على شباب مصر الفقراء، وزوجتى تعيش فى جو خرافى من الأبهة.

خرجت من منزلى شاهدت المصلين يؤمون وجوههم ناحية الغرب.. مشارة للشرق.. وعيونهم المخدرة واجهتنى.

– سكت واقتنعت.

* * *

أخيرا رحل والدى أستاذ التاريخ واحترت وتعجبت وتساءلت.

- العولمة.. ١١ سبتمبر.. والعراق.

فلم أجد إجابة

فسكت وبكيت.

* * *

خطأ كلب

جلس صديقنا، فى مكانه المفضل، على مكتبه بجوار الشرفة وضوء الشمس يغمر المكان وعليه أن يكتب قصة قصيرة؟.

وصديقنا هذا ليس بارعا فى كتابة القصة القصيرة، فهو يحب الاستفاضة فى الكتابة.

ثم إن هناك شروطا للكتاب ومحظورات ممنوع الكتابة فيها.. ممنوع الكتابة فى السياسة ونحن نعيش يوميا فى أحدث السياسة وصديقنا يحب السباحة ضد التيار بقلمه وخشى أن يقصف قلمه وهو عكازه فى أيامه هذه.. نعيش ونتفاعل معها.. ونكتوى بنارها.. ونحلم بها أيضا رغما عنا.. ولقد تمت إزاحة عبء كبير عن صدره بعدم الكلام فى السياسة.. فهى هم لكل من اهتم بها.. فأهلا بالكتابة عن شىء آخر.. نعم عن المرأة نصف المجتمع الجميل.. كلها حلوة.. تكوينها.. نظراتها هى الحياة.. كفتاة وامرأة وزوجة وأم.. الكلام عنها محبب جدا.

فكر فى الكتابة عن شاب أحب راقصة لعوب أملا فى إصلاحها لا هى صلحت ولا هو كف عن حبها.

وبدأ يفكر فى موضوع للكتابة.. لا يصف المرأة فيه أو يتكلم عنها أو عن مشاعرها ولكن كيف يكتب الإنسان عن شىء يحبه بحذر.. إن لم ينطلق الرجل مع مشاعره، وخاصة عن المرأة فكأنك خطفت من الجندى سلاحه.. قبل دخول المعركة.. وعليه أن ينسى الجمال الذى يحبه ويلغيه من فكره وكيانه ويبحث عن موضوع جديد.

فكر صديقنا.. من الممكن الكلام عن الأخلاق فى الدين.. وكل إنسان له عقيدة ويدافع عنها.. نعم سيتكلم عن الدين والأخلاق والارتباط بينهما.

ولكن من الشروط عدم الكتابة عن شيء يمس العقيدة أو الدين أو الخلط بين الأمور.. والفتنة الطائفية سببت منذ سنوات مشاكل عديدة دخل بسببها الرجال السجون.. فدق قلبه خوفا ورعبا.. فصديقنا يؤمن بحقوق الإنسان.. ويكره السجون وظلامها وظلمها وخاصة فى بلده العظيمة مصر!!

أصبح صديقنا فى ورطة حقيقية.. كيف يستطيع أن يكتب رواية حافلة بالمشاعر ولا يستطيع أن يكتب قصة قصيرة من صفحات قليلة.. واستعرض القصص التى تقرأ عليه فى جمعية القصة.. إنها تتحدث عن الأطفال ونوادرهم وكبار السن ومشاكلهم.. وحتى القصص التى بين السادة والخدم.. والحقيقة أن صديقنا هذا عنيد جدا.. لا يستطيع أن يكتب شيئا غير مشاعره الحقيقية والصراحة والصدق حتى لو أغضب الجميع..فلقد نصحه والده محذرا ذات يوم قائلا له:

«لا تكن صلبا فتكسر.. ولا تكن لينا فتعصر».

وتذكر صديقنا أن الاجتماع الأخير كانت به قصص عن النمل والكلاب.. وفضل أن يكتب قصة عن الكلب ولكنه تردد.. إن المجتمع لا يقبل أى كلام عن الكلاب لأن فيه سبا وتحقيرا.. ودماء غزيرة وغزيرة.. سكبت على الأرض بسبب سب إنسان لآخر بأنه كلب أو ابن كلب.. وعليه أن يتحاشى الكلام فى هذا الموضوع ولا يضيع وقته هباء

ففيه سخرية الجميع منه حتى من أقرب الناس إليه.. وعليه أن يطرد الفكرة من رأسه بأسرع وقت وينساها.

ورغما عن صديقنا هبت ذكرياته عن الكلاب الحقيقية التى قابلها فى حياته.. وللأسف الشديد فصديقنا هذا يحمل للكلب حبا عظيما.. ويبادله وفاء بوفاء..

ويخشى من أن يعلن حبه للكلب.. هذا المخلوق الذى يحتقره المجتمع.. أو يسب الناس بعضهم بعضا به.. فيسخر منه القارئ وبدأ صديقنا يتذكر حبه القديم الذى يدخل فى دائرة الجريمة والرذيلة.. فعندما كان عمره سنوات قليلة كان لدى جارته السيدة الأجنبية كلب أبيض صغير..

ينبح نبحات رقيقة.. فكان يطل عليه من النافذة بالساعات والكلب الصغير يقفز على المقعد ويضع قدمه على النافذة.. وكان الاثنان يشتركان فى حب واحد.. يعبران عنه بالنظرات المكتومة.. ويتمنيان أن يلقيا معا.. أى لعبة.. الاستغماية أوالعسكرى والحرامى أو يتسابقا فى الهواء الطلق.

وصديقنا هذا كان يسكن حيا.. كل منزل به فيه كلب أو قطة.. لأن معظمهم كانوا من الأجانب المقيمين فى القاهرة فى ذلك الوقت، ولم يكن حب الكلاب فى صديقنا هذا وليد صدفة ولكنه ورثه عن والده.. الذى فاجأهم يوما بإحضاره كلبا صغيرا.

طار صديقنا به فرحا.. «بيجو» اسم الكلب صديقه الصغير.. وأخذا يلعبان معا على سطح البيت الكبير، فلقد أصبح على «بيجو» عدم دخول

للشقة.. وعليه أن يقضى حاجته فى مكان مخصص وإلا تعرض لضربه بالعصا من صاحبة المكان.. التى لم تكن تسمح له بالدخول من باب الشقة وعليه أن يتحمل البرد أو الحر أو أى شىء فيكفيه أنهم يتحملون مشقة إطعامه.

وبدأ صديقنا يفهم أصواته.. السعادة.. الحزن.. اللوم.. البكاء.. وتحولت الصداقة إلى حب جارف.. حيث يعود صديقنا من المدرسة.. فصوت بيجو يعلن عن قدوم صاحبه.. فتعلم صديقنا الصغير الحب من الكلب.. والوفاء من الكلب.. ونكران الذات مع الكلب.. فهو لا يأكل إلا ما تقدمه له.. ولا يجرؤ على تخطى حدوده.. ومهما قسوت فى معاملته فهو يلتصق بصاحبه يتقرب إليه فى حب.. ولكن «بيجو».. الأنثى أخطأت.. لقد غلبتها الغريزة وغابت نهارا.. ورجعت بعد فترة طويلة فاقدة عفتها وشرفها.

وقد يظن البعض أن الرذيلة عيب فى البشر فقط ولكنه كذلك أيضا بالنسبة للحيوان ولا يحق له الحصول عليها إلا بإذن.

وحينما أنجبت «بيجو».. جروا صغيرا.. تم التخلص منها.. ليعلم صديقنا كلمة جديدة عليه سربناها. وحاول أن يعرف كيف تم تسريبها.. لقد وضعت فى شوال جاف وأغلق بإحكام حتى وصل الصحراء.. وتركت هناك لتواجه المصير المجهول.. فلقد تم التخلص من عارها وفعلتها.. ورحمة بها تم الاحتفاظ بابنها.. وبدأ صديقنا يلعب مع الجرو الصغير.. والجرو الصغير.. ظهرت له أسنان.. وفى مرحلة التسنين.. ضايقته أسنانه ولم يجد غير الغسيل المنشور ليغرس فيه أسنانه.. وقررت سيدة

المنزل طرده.. ووافق زوجها.. وصديقنا يطل من الشرفة لعله يشاهده.. ولكن الحى المحترم الذى يسكنه يرفض وجود الكلاب الضالة.. وجاءت عربة الكلاب لتنفيذ حكم الإعدام على الكلب الصغير.. ويسمع صديقنا الطفل صوت طلقة الرصاص.. فيرتجف من الهلع.. لقد نفذ حكم الإعدام رميا بالرصاص فى صديقه الكلب.. ودون أن يعرف له خطأ سوى اللعب مع الغسيل..

تعرف الصغير على الألم والفراق والموت.. فبكى فى صمت خجلا أن يكشف حبه إنسان..

حرب ١٩٥٦ الأجانب يغادرون القاهرة.. امتلا سطح المنزل بكلاب باكية.. يدرك ذلك صديقنا من نظراتها.. فهو خبير بنظرات الكلاب ويفسرها بسهولة.. ويعلم أن الكلب يعيش بصاحب.. ودون صاحبه ليست هناك حياة. مكثت الكلاب أياما.. حزينة تبكى فراق أصحابها.. وبأوامر سيدة المنزل ترك الجميع المكان.. وخاصة أنهم انتقلوا للإقامة فى شقة حديثة بها شرفة واسعة كبيرة طولها أكثر من عشرة أمتار..

واقتنعت سيدة الدار بكلام خرافات تقول إن الشياطين تخشى الكلاب.. ولا تحوم فى منزل به كلب.. لكنها وافقت على كلب صغير مطيع وينبح قليلا..

وهكذا تمت صداقة جديدة بين صديقنا الصغير والكلب الضئيل.. الذى كان يمتلك شقاوة غريبة.. إنه يستطيع أن يقفز على سور الشرفة.. ويتنقل منها إلى سور الشرفة الأخرى بخفة ورشاقة ومهارة أعجبت المارة.. فمنهم من يصفر أو يصفق أو يشير بيده.. وهكذا نال الكلب

الإعجاب.. حتى من بنت الجيران «فيرا».. اللبنانية الجميلة ذات البشرة البيضاء والملامح الأجنبية.. التى يحرم عليها اللعب مع أبناء الجيران ولا تلعب فقط إلا مع صديقاتها اللبنانيات.. ولكن إعجابها بكلب صديقنا.. أنشأ بينهما نظرات تفسر بأشياء يحار فيها الصبيان والبنات..

وشقاوة الكلب.. قابلتها شقاوة من صاحبنا، فمشى بخفة بالشرفة ليصطدم رغما عنه بالكلب الواقف على السور فيسقط من الدور الأول إلى أرض الشارع، ولسوء الحظ هناك محل جزار بالشارع فأخرج عصا كبيرة وانهال على الكلب ومع صراخ الكلب بكى صديقنا فى هلع وفى نظرات «فيرا» إليه تشاركه بكاءه الخجول..وصوته المسموع الذى يعجز عن كبحه.. لأن الرجال لا يبكون..

وحمل الجيران جسد الكلب الصغير إليهم.. الذى نام على الأرض فى ألم.. ليتحرك بعدها بأيام قليلة وقد منعه من القفز على سور الشرفة مرة أخرى وجود حاجز مانع.. ويدفن بعدها بقليل فى حديقة بجوار المنزل.

وصديقنا الصغير يسافر بضعة أيام إلى الإسماعيلية فى منطقة هادئة.. حيث بيت من دور واحد..

أمامه طريق السيارات ثم شريط الحدائق والأشجار الذى تخترقه ترعة الإسماعيلية.. وينزل صديقنا ليلعب مع باقى الأطفال الكرة أو القفز على الأشجار أو لعبة مميزة اسمها «السبع طوبات» ومضى يومان.. وفى منتصف اليوم الثالث.. والشمس الحامية تغمر المكان.. اكتشف صديقنا أمرين.. يخصان الكلب.

أولهما: الاستسلام التام للقدر.

ثانيهما: لماذا يسب الناس بعضهم باسم الكلب.

فلقد تقدم بعض الصبيان يحملون كلبا صغيرا.. إلى حافة الترعة.. ويقذفونه فى منتصف الماء.. ليحاول السباحة بيديه الصغيرتين.. والصبية يصرخون.. ويهتفون تشجيعا ليحاول أن يصل إلى بر الأمان وحينما يصل إلى حافة الترعة مبللا ويرتجف من الرعب حوله.. يمسكه الصبى الذى أحضره.. وكأنه يملك عبدا لا يقوى أحد أن يحاسبه عليه.. فهو ملكه يفعل به ما يشاء يقلبه فى الماء.. يقتله.. يعذبه.. هو حر.. فهذا كلبه وحقه وملكه.. تأثر صديقنا وسأله فى سذاجة:

ماذا تريد أن تفعل بالكلب؟

فرد الصبى باهتمام بالغ:

– أعلمه السباحة..

وابتكر فكرة جديدة لتعليمه السباحة.. لقد أحضر لوحا من خشب ووضعه فوقه.. ودفعه إلى منتصف الترعة والكلب مستسلم.. لا يقوى حتى على النباح.. أو القفز على لوح الخشب.. وبدأ الأطفال يقذفون اللوح بأحجار صغيرة تصيب الكلب الصغير مثل اللوح.. حتى سقط وسط الماء وحاول مرة أخرى.. ولكن الرعب الذى هز أعصابه.. واليأس من هذه الحياة التى جاء إليها دون رغبة.. وعيون الأطفال حوله ترمقه بعداوة وليس هناك مفر من أجل التعامل معهم إلا الاستسلام التام للموت.. وبدأ الكلب الصغير.. يغرق شيئا فشيئا.. وصوت الصبية حوله يدفعه أن يترك هذه الحياة وهذا العذاب ويرحب بالمجهول.. الموت..

مع أن غريزة الوجود تدفعه للتشبث بالأمل.. ولكنه فقد الأمل مع هؤلاء البشر.. وهؤلاء الأطفال.

* * *

بدأ صديقنا يتعلم أمور الحياة.. فالاستكانة والضعف والاستسلام هى صفة الكلاب.. ولهذا يسب الناس بعضهم بعضا بكلمة الكلب.. ولكنه فى داخل أعماقه يعلم أن الكلب مخلوق وفى لصاحبه.. فهو لا ينسى أصوات نباح الكلب المرحبة به.. وعينيه الصغيرتين الحزينتين المستكينتين وكأنهما تبكيان حالهما.. إنها خلق فى ضعف تام.. فهى لا يقوى على العمل مثل الحمار أو الحصان.. ويعلم فقط أنه يحرس قطيع الأغنام والمنازل.

نسى صديقنا القصة..ومضت الأعوام به.. وبدأ فى لعب الكرة فى الشوارع ويرتاد المساجد فى يوم الجمعة ليسمع صوت إمام المسجد يقول محذرًا من أمرين مؤثرين.. امنعوا لعب أطفالكم فى الشوارع فهم يتعمدون إصابة المارة بالكرة فى ظهورهم.. وهذه قلة أدب. وفى خطبة أخرى قال.. إن الكلب نجس ولابد من غسل أوانى الطعام سبع مرات وإحداهما بالرمل الناعم.. وتساءل صديقنا لقد لعب الكرة فى الشارع.. ولم يقصد إصابة أحد.. لماذا يقول إمام المسجد كلاما جميلا.. يستمع الجميع له فى خشوع..ثم يهاجم الأطفال.. ألا يعلم أن الأطفال ترتاد أيضا المساجد..

وإذا بالقدر الرحيم يرأف بصديقنا.. فلقد أتى شيخ آخر لطيف الوجه.. يتكلم بهدوء تام يمس القلوب ويقنع الناس جميعا.. وفى إحدى

الخطب يقول إن هناك رجلا ذهب ليشرب من بئر.. فوجد كلبا يحتاج لماء.. فسقاه بيده.. فكان ذلك خيرا له.. وأحب صديقنا هذا الشيخ.. وتعلم أن هناك من يتكلم فى المساجد بعلم ومعرفة.. ودراية.. وهناك من هو متزمت شديد اللهجة يثير الخوف بلا داع.. ومضت سنوات أخرى من عمر صديقنا.. وشاهد صديقنا فى الإسماعيلية رجلا يحمل بندقية وخلفه بعض أصدقائه فى رحلة غريبة.. إنهم يصطادون الكلاب الضالة.. لأنها ضارة.. فالكلاب مسعورة وعليه تخليص الناس منها.. وصوت الطلق النارى مصحوب بنباح الكلاب المقتولة..

وفكر صديقنا.. لماذا لا يكون الكلب ذئبا.. ليدافع عن نفسه بأسنانه.. فقد قال له والده ذات مرة:

«لو لم تكن ذئبا لأكلتك الذئاب»

وشاهد طفلا يوما يجر كلبا مربوطا بحبل من رقبته ويجر جسده على الأرض وعينيه جاحظتين.. فقال له: ماذا تفعل يا ولد.. فرد بعد اكتراث.. الكلب مسعور..

* * *

ومضى العمر به.. وتزوج.. وأنجب أطفالا.. وكانت زوجته تخشى كل الحيوانات بدون استثناء.. فكان يأخذ أولاده فى نزهة إلى حديقة الحيوان.. ليطعم الطفل الصغير الزرافة زيلقة بالسودانى للقرد.. ويشاهد الحيوانات كلها..وكأنه يقول له: أنت لا تعيش وحدك، فالعالم هكذا كله معك، ولن يستطيع أن يعيش الإنسان وحده على الأرض.. فالطبيعة أوجدت الجميع.. والطبيعة الغريبة التى جعلت صديقنا وأباه يحبان هذا الحيوان.. توارث هذا الحب ابن صديقنا..

بجوار بيتهم مجموعة كلاب تحمى قطعة أرض مملوكة لصاحب جراج.. اختار ابنه أحد الكلاب.. يضع فى حقيبة المدرسة بعضا من بواقى اللحم والفراخ.. والعظم.. وقبل أن يستقل حافلة المدرسة يلقى إليه اللفة.. فيصيح الكلب فى لهفة ويأكل ما يقدمه الصبى فى سعادة تامة. وصارت بينهما صداقة اكتشفها صديقنا بالصدفة حينما كان يظهر من الشرفة.. وجد ابنه يداعب كلبا ضالا.. والكلب الضال يهز ذيله فرحا بصديقه الصغير..

ولكن ما حدث مع صديقنا.. حدث مع ابنه بالضبط جاءت سيارة الكلاب.. وأخذتها بحجة الضوضاء.. وبكى الابن كما بكى الأب دون اتفاق..

ومضى الزمان.. وسافر صديقنا للخارج.. إلى أوروبا.. وأصبح لديه مقر دائم فى شقة واسعة.. حولها الحدائق.. والتحق ابنه بكلية الهندسة.. وأصبحت لديه غرفة خاصة.. ورأى خاص.. فقد استأذن والده فى تلبية رغبته فى اقتناء كلب.. ورحب صديقنا فى هدوء تام.. وعمل ابنه فى أثناء دراسته ليشترى كلبا جميلا سماه (هاملت).. خصص له مكانا وكافة احتياجاته من فراش وطعام.. وأصبح للكلب مواعيد للخروج والنزهة.. واللعب مع باقى الكلاب المتقاربة من سنه.. وهكذا حقق الابن رغبة الأب.. وحينما كان يجلس الأب لمشاهدة التليفزيون يجلس الكلب عند قدميه فى هدوء وسكون تام.. وحينما يأتى الابن فى أول الطريق وعلى بعد عشرات الأمتار ينبح الكلب فرحا.. وهذا الكلب ينبح بطرق عديدة تعبر عن الفرح أو الاشتياق أو الرغبة فى اللعب.. وصارت

بين صديقنا وكلب ابنه صداقة عميقة.. تحولت إلى حب شديد.. فهما يفهمان نظرات بعضهما البعض.. واختيار كل واحد منهما للآخر فى الأيام القليلة التى يقضيها فى زيارته لأوربا..

والزمان دائما يكرر نفسه.. فلقد جاء ابنه ذات مرة.. يقول له وهو يحاول أن يخفى مشاعره.. قد قررت أن أعطى (هاملت) لأسرة أجنبية لديهم نفس نوع الكلب.. سيهتمون به.. لأن وقتى لا يسمح لى.. وأنا لا أستطيع أن أهتم به لضيق الوقت..

كان رد صديقنا الذى تعود على الصداقات المتوالية الخاصة بالكلاب.. هل من الممكن أن يتركه هكذا..

ورد الابن بالإيجاب.. ومضى الزمن.. وسأل صديقنا ابنه على استيحاء.. ممكن أزور «هاملت».. ورد الابن بالنفى فأصابه الجنون.

غيروا اسمه إلى اسم آخر.. ويمنعون عنه الزيارة وتكوم صديقنا فى فراشه فى وحدة قاسية.. فهو ممنوع عن البوح بحبه لكلبه.. لأن الكلب خطيئة.. ولا يستطيع أحد أن يعلن عن حب الخطيئة.. وعليه أن يكتم مشاعره.. وحبه لكلبه.. ولقد قال كامل الشناوى:

«أشترى الحب بالعذاب.. أشتريه فمن يبيع».

وقرر الكلب أن يشترى حب الناس بعمره كله.. وبتضحياته الكاملة التى لا يعرفها البشر، وصديقنا هذا يشاهد العالم حوله ويتساءل: هل من الممكن أن تكون علاقة البشر بالحب دون بغض؟.. هل من الممكن ألا يتفق المليارات فى تكريم الأسلحة لنتقاتل بعضنا البعض من أجل اختلاف رأى أو فكر؟.. إننا ننفق المال ليقاتل الإنسان أخاه الإنسان

ونسخر من حب الإنسان الذى يحب أضعف المخلوقات ويتساءل صديقنا دائما:

- ما هو خطأ الكلب ابن الكلب؟!

حينما تكومت أسلحة الدمار بأكثر من مليار.. وأنكرت كل الأفكار.. إلا فكرا واحدا.. وهزمت كل الآراء إلا رأيا واحدا.. ليعيش النور والهواء فى ظلام واختناق..

حينما هاجمت جيوش الوحوش، لتقتل الرجال وتسبى النساء، لتفقد المرأة ملاذها، وتصبح جارية لكل الرجال.. وينكسر الطفل ويجبر على ما لايشاء.

حينما تجبر الأقوياء والأغنياء فى غباء ومنعوا حق الضعفاء والفقراء والنساء فى الغذاء والدواء وقطرة ماء.

حينما استبدل الطغيان سكان المكان بسكان آخرين.. ليسود الظلم والظلام.

حينما دقت طبول الخراب وعزفت أناشيد الأحزان وبنيت أقواس النصر الزائف ملكة برايات العار السوداء.

وحينما تبارى وتباهى الرجال.. ببنادق القتال لاغتيال حمامة السلام ليتحول لونها الأبيض الناصع إلى الأحمر الدامى.. وقام صديقنا من فراشه..

مبتسما ابتسامة ساخرة فلقد أدرك خطأ الكلب ابن الكلب.

الفـهرس

إهداء ٣
مقدمة ٥
الهزيمة اسمها سارة ١٥
بريق العيون ٥٤
يوم فى الجنة ٥٩
نصاب.. نصاب؟! ٦٤
الميكروباص ٦٧
بنج – بونج ٧٢
الغولة ٧٨
شيكولاتة ٨١
حد الموسى ٨٦
السماء دائما زرقاء ٨٩
صديقنا ٩٢
الجانى شتراوس ٩٤
المولود الأخير ٩٨
مواطن يعلن: أنا عيل ١٠٠
خلاص ريحوه ١٠٩
سكت واقتنعت ١١٣
خطأ كلب ١١٩

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٢٤٠١٩
الترقيم الدولي	ISBN 978 - 977 - 02 - 7920 - 5

١١٩ / ٢٠١٣ / ١

طبع بمطابع دار المعارف